السماء
لاتحابى
أحدا



تأليف : أريك ماريا ريمارك

ترجمة : السيد وقاش

السماء لا تحابي أحداً

تأليف : اريك ماريا ريمارك

ترجمة : السيد وفائي

HEAVEN HAS NO FAVORITES

By

Erich Maria Remarque.

دار الكتاب الجديد

مقدمة

مؤلف هذه القصة اريك ماريا ريمارك من اشهر الكتاب الالمان في القرن العشرين . لمع اسمه منذ عام ١٩٢٩ حين صدرت روايته الخالدة كل شيء هادىء في الميدان الغربي التي بثها انطباعاته الصادقة وانطلاقات خياله الفياض مع دقة تصويره لاحداث الحرب العالمية الاولى ، فجاء في اروع تصوير انساني الشباب رغم الاحداث العابدة في رقة هائلة وتحليل بديع . ومنذ ذلك التاريخ صدرت لكاتبنا العظيم عدة روايات كانت اولاها قرينة الاحلام ثم طريق العودة ــ غبي الحياة ــ قوس النصر ــ فلتحب جارك ــ ليلة في لشبونة ــ المحطة الاخيرة ــ الرفاق الثلاثة ــ المسلة السوداء ــ للحب وقت وللموت وقت ــ الشاطىء الاخير ــ الحياة المصونة .

وقد ظهرت رواية (كل شيء هادىء في الميدان الغربي) في السينما عام ١٩٣٠ ولاقت نجاحا منقطع النظير كما ترجمت الى اللغة العربية والى كثير من لغات العالم فضاعفت من شهرة كاتبها .

ولد ريمارك في المانيا عام ١٨٩٠ في مدينة انسبروك لاب كان يعمل في مهنة تجليد الكتب . وقد اشترك ريمارك في شبابه في الحرب العالمية الاولى فتشبع باحداثها وانفعل باهوالها وسجلتها رواياته ، ثم عمل مدرسا لفترة رحل بعدها الى برلين حيث جذب انتباهه العمل الصحفي فعمل صحفيا فيها . وفي عام ١٩٣٩ هاجر الى امريكا فعاش فيها واكتسب الجنسية الامريكية واقام في احدى ولاياتها .

وتتميز بعض كتابات ريمارك برومانسية الاسلوب حين لا تتعرض الرواية لشيء محدد المعالم واضح الهدف اما حين يكتب عن موضوع من الواقع فانك تراه اسلوبا دقيقا في التحليل والعرض متمكنا من سرد كافة الاتجاهات والافكار وتحليل الشخصيات مع تباينها وكثرتها ، دون ميل أو انحراف لفكرة أو اندفاع عن مبدأ معين أو تحبيذه . وقد ندد ريمارك في كثير من رواياته بالنازية التي ظهرت بوادرها حينذاك فنددتها وهاجم الحروب والدم والمذابح البشرية والخراب والفناء واعتبر نصيرا للسلام داعيا له .

وعلى الرغم مما اتسمت به معظم الروايات التي كتبها ريمارك من تصوير لمآسي الحرب وآثارها وبشاعة معسكرات التعذيب وشرورها والصراع الحزبي الدامي من اجل البقاء وهول أزمات العصر ومشكلاته التي حاقت بالعالم في اعقاب الحربين العالميتين الاولى والثانية ، الا اننا نجده يطرق ببراعة اخاذة واسلوب ممتع أسمى المعاني وارق المشاعر العاطفية الانسانية التي تنفذ الى القلوب بحنان بالغ كالحب والتضحية والبذل والاخاء والعون والفداء . وتتجلى موهبة ريمارك القصصية بكل معانيها في روايته قوس النصر كما تعتبر روايته قبس الحياة احدى القمم الادبية حيث صور فيها اباء الانسانية وعزتها وكرامتها وعدم امكان هزيمتها امام بشاعة التعذيب في معسكرات النازية .

ويمكننا القول بان الاديب الالماني ريمارك يعتبر بلا ريب من اوائل الكتاب الذين ارسوا دعائم « ادب الحرب وقواعده » الذي أصبح بعد الآن ضرورة يفرضها التطاحن المستمر للشعوب العالم في مصيرها دفاعا عن قضية العيش والبقاء وتحديد المصير .

ومن بين ما كتب ريمارك الرواية التي نقدمها اليوم السماء لا تحابي احدا وهي من أقوى قصصه التي تترك أثرا عميقا في نفس القارىء ... فهي تشد انتباهه ليعيش مع اللذين يصارعان القدر بأحداثه يحس بأحاسيسهما وما يواجهانه من حدة المواقف وقسوة الاحداث ودوى الأهوال وصدى الرهبة التي تجيش في صدورهما .

فهي قصة رجل اختار لحياته اسلوب المخاطرة ، دأب على عشق التحديات فتحدى الزمن في مواجهة القدر .... وقصة امرأة في مقتبل العمر حباها الله جمالا ساحرا اندفعت بـه نحو

مصيرها المحتوم تضطرب بما يضطرب به الناس في حياتهم ومتعهم غير عابئة بشيء ..

كانت حياة الرجل مراحل تمتد من سباق الى آخر ، أما هي فكانت حياتها اياما معدودة ، ولكن استطاعت ان تعيشها بكامل متعتها وبلغت منها ما تريد من حياة زاخرة انها قصة المغامرة المستميتة بفرض الحياة ضد الموت . قصة ينتقل بنا مؤلفها — وكأنه مصور — لو ظهر في براعة نادرة مقدرة روعة جبال الألب ووحشتها وسحر باريس وبرودتها وجمال صقلية والبندقية وهدوء الريفيرا وجماله . انها قصة اثنين جمعت بينهما الصدفة وطوقهما المصير المحتوم بذراعين فشربا كأس الحب حتى الثمالة غير عابئين بما قدرته لهما السماء . ان ما قدر يكون « والسماء لا تحابي أحدا » ومصائر البشر مقدرة من يوم خلقهم على اختلاف البشر في ظروف حياتهم وما ينتهجونه من طرق للعيش والحياة .

انها قصة احلام البطلة ، يؤدي خلالها الابطال أدوارهم على مسرح حياة لاهية تندفع بهم الى شفا الهاوية ، فيستيقظون في لحظة قدر لهم فيها أن تتبدد هذه الاحلام مصطدمة بالواقع المر الذي لا مفر منه .

لقد عمد الكاتب الى تحليل مختلف ظواهر الحياة تحليلا دقيقا بنعومة بالغة رقت به الى قمة الابداع والبراعة ، وانسابت في عرض اخاذ مع مختلف المشاعر والعواطف في جرأة وحذر ، وشجاعة وخوف واقدام وحرص ، وحزن وأمل ، وأسى ورجاء ، وحب وبغض ، وتضحية وتردد .... الى آخر ما يختلج بالنفس البشرية من عواطف جياشة ونوازع متباينة وأحاسيس مرهفة .

والآن اتركك ايها القارىء العزيز في رحلة ممتعة تعيش فيها احداث هذه الرواية الرائعة بكاملها واعدك أن نتلاقى دوريا حين اقدم لك مزيدا من أدب الشرق والغرب .... فالى اللقاء .

الفصل الأول

توقف كلير فايت بسيارته أمام محطة للبنزين أزيلت من حولها الثلوج ، ونادى يستدعى القائم على خدمة السيارات بها وكانت الغربان تحوم حول أعمدة التليفون ، ومن داخل الورشة تنبعث طرقات تدق جسما معدنيا . وعلى دوى النفير سكتت الطرقات ، ولبى النداء فتى فى السادسة عشرة من العمر ، أقبل يسأله عما يريد . وبادره كلير فايت قائلاً ، وهو يغادر السيارة :

ـ تموين شامل

ـ رحلة طويلة ؟

ـ أجل .. أين يمكن أن أتناول شيئا من الطعام ؟

ـ هنك ، فى الجانب الآخر من الطريق .

ثم أردف ـ وكن على حذر فالثلوج متراكمة خاصة عند الممر ، والطريق مغلق طبقا لتقرير نادى السيارات ، وقد تجد مشقة فى عبوره بمثل هذه السيارة الرياضية الصغيرة .

وكان جو المطعم خانقا ، تسرى فيه رائحة الجعة الممتزجة برائحة برد الشتاء الطويل . وأمر كلير فايت بأن

يؤتى له بطعامه الى الشرفة . ولم يكن الطقس شديد البرودة فى الخارج . وكانت السماء زرقاء صافية الاديم .

وجلس يتناول طعامه ، ويحتسي نبيذه ، ويستعرض ما كان من رحلته الطويلة عبر فرنسا ، ويتساءل عما أتى به الى هذا المكان . لماذا لم يول وجهه شطر ميونيخ ؟ أو ميلانو ، ترى ماذا كنت فاعلا فى ميونخ ؟ أو فى ميلانو ؟ أو فى أى مكان آخر ؟ لقد ضقت ذرعا بكل شىء . ضقت ذرعا بالانتقال من مكان الى مكان . أم تراني مللت هذه الحياة غير المستقرة ، وهذا الانطلاق غير الهادف ؟

وفرغ من تناول طعامه ، ثم عاد أدراجه الى داخل المطعم . وبعد أن سأل الفتاة القائمة على الخدمة بالمطعم ، أن تملأ زجاجة الخمر التى يحملها معه بكونياك المارتل غادر المطعم الى محطة خدمة السيارات ، حيث بادره الفتى مستفسرا ، لماذا لم تسلك الطريق العام بمثل هذه السيارة القوية ؟ وما الذى أتى بك الى مسالك الالب ؟

ويجيب كلير فايت ، وهو يحدق النظر به ، « اننا لا نتبع دائما طريق الصواب يا ولدى ، مع ادراكنا لحقيقة مانفعل . ان سحر الحياة ؛ كثيرا ما يحملنا على تنكب الطريق السوى . هل فهمت ؟ »

ـ كلا . ستجد تليفونات النجدة على طول الطريق . فاذا ما صادفتك أية متاعب ، فما عليك الا أن تتصل بنا لنخف الى نجدتك فان لدينا رافعات قوية . ولاتنس أننا على ارتفاع أربعة آلاف قدم !

ـ وما اسمك يا بنى ..؟

ـ جورنج .

ـ ماذا ؟

ـ جورنج . هوبرت جورنج .

ـ ترى هل لك علاقة قرابة ..

ـ كلا . انني من أسرة بازل جورنج . لو انني انتمى الى الاسرة الاخرى ، لما كنت بى حاجة الى مثل هذا العمل ، ولكنت الان ناعما بمعاش محترم من الحكومة الالمانية .

ـ وفقك الله فيما تبغى يا ولدى . لقد سعدت بلقائك

ـ انك تتخذ من قيادة سيارات السباق مهنة ، أليس كذلك ؟

ـ كيف عرفت ذلك ؟

فأومأ هوبرت جورنج باصبعه الى رقم كاد أن ينمحى مدون فى مقدمة السيارة . وعقب كلير فايت قائلا ، وهو يستقل سيارته ، « وبوليس سرى أيضا ! لعله من الخير للانسانية أيداعك أحد السجون لتجنيبها كارثة أخرى . قبل أن تصبح رئيسا للوزراء ، حتى يكون قد فات الاوان .

وانطلق كلير فايت بسيارته ، وهو يستعرض من أمر هذا الفتى ما أثار دهشته ؟

● ● ●

بعد مسيرة ساعة ، بدأ الطريق يزداد وعورة نتيجة لتراكم الثلوج . وكان فى وسع كلير فايت أن يعود أدراجه ، تجنبا لما عساه أن يحدث ، ولكن التخاذل لم يكن من شيمته ، وآثر أن يتوقف بسيارته حيث كان ، يدخن سجائره ويحتسى خمره ، فى انتظار رحمة الله .

وبعد قليل ، تمثلت له رحمته في صورة كاسحة للجليد ، وتقاسم كلير غايت ماتبقى من خمره مع قائدها . وتقدمه الرجل بكاسحته التي راحت تمهد أمامه الطريق . وتأمل كلير غايت قطع الجليد تتناثر امامه في دوائر من الشظايا التي تعكس أشعة الشمس ، فتبدو كقوس قزح مختلف الألوان ، وبعد ماتئي ياردة استقام امامه الطريق ، وانتحى القائد بكاسحته جانبا ليفسح لكلير غايت الطريق . . . وامتد الطريق امامه واندفع فيه صعودا الى هضبة القمة التي تشرف على الناحية الاخرى من الوادي المتسع ، بقريته التي تزهو باسطح بيوتها البيضاء ، وبكنيستها العتيقة ، وبأضواء فنادقها القليلة ، في هذه الساعة من الغسق . وتوقف كلير قايت بسيارته قليلا ، ليملأ عينيه من منظر الوادي الجميل . ثم استأنف السير في حذر وعبر الطريق المنحدر الكثير المنحنيات. وانه لواجد في مكان ما من هذا الوادي ، المصحة التي يقيم بها هولمان ، زميله في القيادة ، الذي أعتلت صحته منذ عام . وقرر الطبيب أنه مصاب بالدرن . ولقد سخر هولمان من تشخيص الطبيب ـ أن مثل هذا المرض لا وجود له ، في عصر المضادات الحيوية ، ومعجزات الدواء . غير أن الدواء لم يحقق معجزته المرجوة ، وبالذات مع اناس نشأوا في زمن الحرب ، وتعرضوا لسوء التغذية عاما بعد آخر . وكان أن أصيب هولمان بنزيف حاد ، فقرر بعده الطبيب انه من المتعين سفره الى الجبال لبضعة أشهر .

وقبيل نهاية الطريق المنحدر ، توقف محرك السيارة لعطل به فتركها تبلغ نهايته بقوة الاندفاع الى أن بلغت الطريق السوي حيث توقفت عن السير ، فترجل منها

لفحص المحرك . وبعد معالجة أمره تمكن أخيرا من اصلاح العطل ، ثم أدار المحرك . وبينما كان مكبا على المحرك للتثبت من صلاحيته لمح عن بعد عربة انزلاق مقبلة في اتجاهه . وما أن سمعت الجياد صوت المحرك الهادر ، حتى جفلت واندفعت تركض نحو السيارة . فما كان منه الا أن قفز يمسك بزمامها محاولا أن يهدىء من روعها . وبعد بضع خطوات ، استطاع أن يوقفها ، وقد شعرت بقوة شكيمة اليد القابضة على زمامها .

وبعد أن تم له هذا ، استدار ليرى رجلا طويل القامة ، مرتديا معطفا من الفراء الاسود ، وقد استقام واقفا في العربة ، ثم راح يهدىء من روع الجياد ، متجاهلا وجود كلير قايت . وكانت الى جانبه امرأة في مقتبل العمر ، وقد اكتسى وجهها بامارات الفزع ومضت عيناها خوفا . فبادرهما كلير قايت قائلا :

ـ أسف لازعاجك . ما كان ليخطر ببالي أن الجياد في هذه المنطقة لاتألف السيارة .

وتشاغل الرجل بأمر الجياد لدقيقة أو بعضها . ثم التفت اليه قائلا في لهجة جافة ، « ليس الامر ببالغ هذا الحد الذي خيل اليك . ان الجياد هنا لاتألف هذا الطراز من السيارات ذات الهدير الصاخب لقد كان في وسعي أن أعالج أمرها . ومع ذلك ، فدعني أشكر لك ما قمت به من أجلنا . وتبدى له من كلمات الرجل انه لا يريد أن يظهره بمظهر البطل امام هذه المرأة التي تجلس بجانبه .

وتأمله كلير قايت بنظرات فاحصة . وتبين في وجه الرجل سمات الرجل المتعالي ، وملامح الساخر المتغطرس ، وكأنه يحاول أن يخفي عنه ازدراءه لمحاولته الظهور بمظهر البطل المنقذ لهما . ورأى أنه لم يسبق له

أن شعر بمثل هذه الكراهية لشخص بمجرد النظرة الاولى · فجابه في لهجة غير ودية

ـ لم تكن بي رغبة لانقاذك ، بقدر ما رغبت في تجنيب سيارتي مغبة الاصطدام بالزلاقة

ـ ارجو الا نكون قد تسببنا في ازعاجك ·

وعاد الرجل ليتشاغل عنه بجياده ·· وراح كلير فايت يحدق النظر في المرأة الجالسة بعربة الانزلاق انها لجديرة بأن يبدو في عينيها بمظهر البطل المنقذ ·

● ● ●

كانت مصحة بيلافيستا ، مشيدة فوق مرتفع يشرف على القرية · وفي الميدان الفسيح امام المصحة غادر كلير فايت سيارته ، بعد أن اطفأ مصابيحها وقام بتغطية محركها ليحتفظ بحرارته · وسمع صوتا يناديه باسمه من مدخل المصحة

واستدار ليجد هوللان مسرعا في اتجاهه · وتولته الدهشة لانه كان يتوقع أن يجده ملازما فراشه وسمعه يقول :

ـ كلير فايت ! أو حقا ما ارى ؟

ـ كل الحق · وانت ! ماذا تفعل هنا ؟ كنت أعتقد انك ملازم الفراش ·

فضحك هوللان وربت على كتف صديقه قائلا :

ـ كان هذا هو المتبع قديما . لقد طرق سمعي هدير محرك سيارتك ؛ غير انني لم أصدق انني لاول وهلة ، وخيل الى انني أهذي · ثم رأيتك قادما عن بعد · يا لها من مفاجأة ! من أين أنت قادم ؟

ـ من مونت كارلو ·

ـ رباه ! وبهذه السيارة ! لقد دار بخلدي ، في وقت ما ، انك قد انسيت امري ·

وربت بيده على هيكل السيارة ، التي سبق له أن تولى قيادتها مع كلير فايت في اكثر من سباق ، وفي آخر مرة قادها داهمه النزيف . ثم استطرد قائلا :

ـ لقد قدم العهد بها ·

ـ أجل . انها لم تعد تصلح للسباق . لقد ابتعتها من المصنع · انها في عداد المتقاعدين ·

ـ كما هو شأني

ـ انك لست من المتقاعدين . ما أنت الا في اجازة مؤقتة .

ـ لعلم بأسره اية اجازة هذه ! هيا بنا . اذا يجب أن نحتفل بقدومك . ما هي خمرك المفضلة في هذه الايام ؟ أهي الفودكا ؟

ـ لا تقل ان المصحة تقدم لكم خمرا ؟

ـ للزائرين فقط .. انها مصحة من طراز عصري ·

ـ وما أحسبها الا كذلك · انها تبدو كفندق كبير ·

ـ وأن تبدو كذلك جزءا من العلاج · انها نظريات العلاج الحديثة · فهم يشعرونك بانك ضيف تستشفي ، ولست مريضا يعالج · حريصون على عدم ترديد كلمتي ، المرض و « الموت » في هذا المكان انها الكلمات المحرمة . أن الناحية النفسية لها أهميتها لرفع الحالة المعنوية لنزلاء المصحة . غير أن هذا كله لا يجدي عندما يحم القضاء · ماذا كنت تفعل في مونت كارلو ؟ هل اشتركت في سباقها ؟

ـ اجل · الم تعد تطلع على انباء الرياضة ؟

ـ كنت افعل ذلك في أول الامر ، ثم امتنعت ·

— ستعود للاطلاع عليها بعد أن تستأنف عملك ٠

— هذا ما أرجو أن يتحقق ٠ ترى من كان زميلك فى السباق الاخير ؟

— توريانى ٠

واتجها معا الى المدخل ٠ وتأمل كلير فايت المبنى وما يحيط به قائلا :

— انه لمكان جميل ٠

— بل قل سجن جميل ٠

ولم يعقب كلير فايت بشىء . لقد كان يعرف الكثير من السجون الاخرى ٠ وانبرى هولمان يسأله :

— هل يلازمك توريانى فى كل سباق ؟

— كلا . اننى فى انتظار عودتك . لذلك لن ارتبط بأحد سواك ٠

ولم يكن كلير فايت صادقا فيما قال ٠ لان توريانى كان زميله فى كل سباق خلال الستة اشهر الاخيرة ٠ وقد وجد كلير فايت فرصة سانحة للكذب الابيض ، بعد أن علم من هولمان انه لا يتابع أنباء الرياضة . وقد كان لتصريح كلير فايت أحسن الاثر فى نفس هولمان . ثم سأله :

— هل فزت بشىء فى هذا السباق الاخير ؟

— كلا ٠ فقد كنت من الاواخر ٠

— من أين بدأتم السباق ؟

— من فيينا . ٠ لم تكن الفكرة موفقة ٠ وكان هذا هو أول سباق أشتركت فيه بالسيارة الجديدة ٠

— لعل فشلك كان انتقاما لسيارتنا السابقة ٠

— هيا بنا لنتناول ما وعدتنى به من مشروب ٠ وانى لارجوك ألا تحدثنى بشىء عن السباق أثناء اقامتى هنا

— وعن أى شىء آخر سنتحدث ٠ هل حدث شىء ما ؟

— كلا ، كلا . كل ما فى الامر اننى ضجر متعب ، واريد أن انسى ، ولو لفترة قصيرة ، هذا العمل الجنونى الذى يعرض حياة الكثيرين للخطر ٠

— ماذا استجد من أمور ٠٠ ؟ انك لم تكن لتتحدث بذلك من قبل ٠

— لا شىء ٠ لا شىء ٠

— اننى لا أصدق شيئا مما تقول ٠ ترى من عساه أن يكون الضحية الاخيرة ؟

— انه فيرو ٠ فى سباق على الشاطىء ٠

— قتل ؟

— كلا ٠٠ ولكنهم اضطروا لبتر احدى ساقيه ٠ وهذه البارونة التى كانت مدلهة فى حبه ، ضنت عليه بالزيارة ٠٠. الى بكاس من الخمر ٠ دعنا من هذا الحديث المقبض ٠

وجلسا فى البهو ، الى مائدة صغيرة بجوار النافذة ، وتأمل كلير فايت ما حوله قائلا ، « وهل جميع هؤلاء من المرضى ؟ »

— كلا ٠ منهم ضيوف قدموا لزيارة مرضاهم ٠

— ترى هل المرضى منهم هم صفر الوجوه ؟

— كلا . انهم الضيوف . اما الآخرون الذين خيل اليك انهم الاصحاء ، فهم نزلاء المصحة ٠ لقد استعادوا الكثير من صحتهم نتيجة لاقامتهم الطويلة هنا ٠

واقبلت فتاة تحمل كوبا من عصير البرتقال لهولمان ، وقنينة صغيرة من الفودكا لكلير فايت . واستفسر هولمان من كلير فايت عن الفترة التى يعتزم قضاءها معهم ٠

— بضعة ايام ٠٠ اين يمكننى أن أقيم ؟

ــ أعتقد أن خير مكان يصلح لاقامتك هو فندق بالاس ، ففيه بار بديع .

وكيف عرفت هذا ؟

ــ اننا نتردد عليه من آن لآخر ، خلسة . وهذا لا يكون الا ليلا . وان كان هذا مخالفا للتعليمات ، وذلك حينما تستبد بنا الأفكار السوداء ، وما أحسب سلوكنا هذا ، الا خيرا من الدخول في مناقشة مع الأقدار عن السبب فيما نزل بنا من علة . اننا نتردد على الفندق لمعاقرة الخمر ، وفيها نجد السلوى .

وأخرج هولمان من جيبه زجاجة صغيرة من الجين صب منها قليلا في كوبه . فسأله كلير فايت :

ــ الا يسمحون لكم بتعاطي الخمر ؟

ــ بالقليل منه ولكن ليس الى الحد الذي يرضينا ؟ وعندي أن طريقتي أفضل

وتوقفت عربة الانزلاق أمام باب المصحة . ورأى فيها كلير فايت نفس العربة التي التقى بها وهو في طريقه الى المصحة . وترجل منها الرجل ذو المعطف الأسود . فسأل كلير فايت صديقه :

ــ هل تعرف من عساه أن يكون هذا الرجل ؟

ــ أنه روسي يدعى بوريس فولكوف ..

ــ أهو من الروس البيض .. ؟

فأجابه هولمان : ــ نعم .. ولكنه لم يكن من عظماء الدوقات ، وان لم يكن فقيرا . وقد فهمت أن والده أودع في الوقت المناسب مبلغا ضخما في أحد بنوك لندن ، ولكنه ذهب الى موسكو في وقت غير مناسب فاعتقل وقضى عليه بالاعدام ، وهربت زوجته وابنها الى الخارج وهي محملة بأكداس من الجواهر .

ــ انك لعمري مكتب للمعلومات .

ــ وهذا ما يسلينا هنا .. ان أسرار الناس هي حديث المجتمع في هذه المصحة .

ــ وهل هذه المرأة زوجته ؟

ــ كلا .

ــ وهل هما من المرضى نزلاء المصحة ؟

ــ أجل ، وان كان لا يبدو عليهما ما يوحي بذلك . أن المرأة هي التي تقيم بالمصحة ، أما الرجل فيقيم بالخارج .

وتوقف القادمان قليلا بجوار الباب . وبدا أن الروسي يلح في حديثه الى صاحبته . وبعد أن وقفت تصغي اليه ، بدا أنها تشاطره رأيه وانصرفت عنه معرضة . ووقف الرجل يتأملها برهة ، ثم انصرف مستقلا عربته .

وعقب كلير فايت على ما شاهده بقوله

ــ يبدو أن بينهما خلافا .

ــ هذا ما يحدث كثيرا . وهو نتيجة لما يشعر به المرضى من ضيق نفسي . أن حكمهم على الأمور ليس كحكم غيرهم . انهم يجعلون من الهنات جسائم الأمور .

واتفق كلير فايت مع هولمان على تناول العشاء معا في قاعة الطعام المخصصة للضيوف بالمصحة .

وقبل أن يغادر كلير فايت مكانه ، كانت المرأة القادمة مع الرجل الروسي قد عادت من مؤخرة البهو الى حيث كان هولمان جالسا يتبادل الحديث مع كلير فايت قبل انصرافه . وأخبرته بما كان بينهما وبين كبيرة الممرضات بسبب مغادرتها للمصحة مخالفة بذلك أمر مدير المستشفى . وبعد أن أفضت بما لديها وقدم هولمان اليها كلير فايت :

— ليليان ، صديقي كلير فايت • لقد حدثتك عنه كثيرا • لقد فاجأني بزيارته •

وأومأت اليه برأسها وهي شاردة الفكر • وبدا أنها لم تتعرف على كلير فايت ، بل التفتت الى هولمان مستطردة في غضب ، « أنها تريد مني ان أوى الى الفراش • وذلك لانه سبق أن اعترتني نوبة من الحمى منذ بضعة أيام ، ولكنني لن أصدع بأمرها • على الاقل هذا المساء ! ماذا أنت فاعل ؟ »

— سنتناول طعام العشاء في قاعة الضيوف •

— ساكون معكما •

وحيتهما منصرفة • واستفسر كلير فايت عمن عساها أن تكون المرأة !

— أنها تدعى ليليان دنكرك • نصف بلجيكية ، ونصف روسية . لقد فقدت والديها في الحرب •

— لقد بدت لي في حالة غير طبيعية . منفعلة من لا شيء •

— هذا هو شأنهم جميعا • وبالذات حينما تحدث وفاة في المصحة •

— وهل حدث شيء من هذا القبيل ؟

— أجل ، احدى صديقاتها • كان هذا بالامس فقط •

— ان الموت قدر محتوم في كل مكان •

الفصل الثاني

اذا ما تجاوزنا الطابق الاول ، لوجدنا أن المصحة لم تعد تشبه الفندق ، وأنها تبدو في ثوبها الحقيقي — مستشفى بكل معنى الكلمة •

ووقفت ليليان دنكرك أمام باب الغرفة التي كانت من قبل غرفة أجنيس سومرفيل • وسمعت أصواتا وضوضاء ، وفتحت الباب •

لم يعد النعش موجودا بالغرفة . وكانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها • وكانت بالغرفة خادمتان تقومان على نظافتها ، ومن أرضية الغرفة كانت تنبعث رائحة الليزول والصابون ، ورأت ليليان في جو الغرفة ما لم تألفه من قبل ، وخيل اليها انها أخطأت المكان . واستجمعت قواها أخيرا لتستفسر من الخادمتين عما كان من حال المتوفاة . فأجابتها احداهما :

— لقد نقلت الى رقم ٧ • كان علينا أن نقوم بتطهير الغرفة ، قبل أن يشغلها مريض جديد

وأغلقت ليليان الباب شاكرة • وكانت تعرف ماذا تعنيه عبارة رقم ٧ • انه مدلول غرفة صغيرة بجوار المصعد الخلفي • وهناك تودع جثث الموتى ليسهل نقلها ليلا

بواسطة هذا المصعد المخصص لنقل الامتعة ·

هذا هو الانسان يحمل بعد موته كالجماد ، وتطهر آثاره بالليزول والصابون ·· !

لم تكن الغرفة رقم ٧ مضاءة، وكان النعش مغلقا بعد الآن يحمل · وكانت نوافذ الغرفة مفتوحة وستائرها غير مسدلة ، وقد نفذ ضوء القمر من خلالها · وكان جو الغرفة متناهي البرودة ·

وكانت ليليان تريد أن تلقى نظرة أخيرة على صديقتها · ولكنها عادت متأخرة ، ولم يعد في وسعها ذلك · انهم سيقومون بنقل النعش في جنح الظلام الى مكان حرق الموتى · وهناك ستصير هذه الجثة الى العدم وتصبح رمادا ومجرد ذكرى ·

وتأملت ليليان النعش ·· وتبادر الى ذهنها أن الحياة قد دبت في جسد صديقتها ، وانه ليس بمستبعد أن تعود أجنيس الى وعيها · الا يحدث مثل هذا من حين لآخر؟ صحيح أن مثل هذه الحالات قليلة ، ولكن كم من الحالات شاء حظ أصحابها العاثر الا تكتشف قبل أن يختنق الموتى؟ الا يحتمل أن تكون أجنيس احدى هذه الحالات ، وأنها تحاول في هذه اللحظة أن تخترق بصوتها جوانب النعش المحكم الاغلاق ؟

ـ هل أصبت بلوثة ؟ ما كان لي أن أقدم على دخول هذه الغرفة ·· لماذا فعلت ذلك ؟ أو كان هذا بدافع من عاطفة ؟ أم كان هذا بدافع من فضول ؟ وما هو السبب في تلك الخواطر المتدافعة في ذهني المضطرب؟ أهو الظلام ورهبة الموت ؟ انني بحاجة الى الضوء · ان الظلام يبعدنا كثيرا عن واقع الحياة ·

واستدارت تخطو نحو الباب · وفجأة توقفت حيث هي

تصيخ السمع · وخيل اليها أنها سمعت حفيف ثوب حريري · فسرعت تضيء نور الغرفة · وسرعان ما اكتسح ضوء المصباح الكهربائي القوي ظلام الليل ، وضوء القمر، ورهبة الرعب · أن هذا الحفيف ليس سوى حفيف ثوبي الحريري · رباه ! ماذا دهاني ؟!

ووقفت تحدق النظر في النعش · كلا ، أن هذا الصندوق الاصم من الخشب الاسود لايمكن أن تكون به حياة · انه يحتوي على اقسى مايتهدد الانسان من مصير مظلم · ان من أودعت به لم تعد صديقتها أجنيس سومن قبل ، ولا جثتها المسجاة في ردائها الابيض · كلا ، أن هذا الصندوق لايضم سوى العدم، وظلا لا ظل له، وهذا الفناء الذي يكمن في الحياة منذ أول الخلق وينمو معها ، الى أن تستهلك يوما بعد يوم ، ولا يبقى منها غير العدم ·

ومدت يدها تتلمس مقبض الباب · وما أن فعلت ذلك حتى فتح الباب ؛ فندت عن صدرها صرخة مكتومة · ووجدت أمامها أحد الحراس يحدق النظر دهشا ·

وبادرها قائلا ، «بحق السماء ، كيف دخلت ؟ لقد كانت الغرفة مغلقة ·· أين المفتاح ؟ »

ـ لم يكن الباب مغلقا ·

ـ اذن فلابد وان احدا قد .. ـ آه ؛ ان المفتاح لم يزل في مكانه من الباب .. · لقد خيل لي ·

ـ ترى ماذا دار بخلدك ؟

لقد خيل الي أنك ··

ثم أومأ بسبابته الى النعش · فهمست ليليان قائلة :

ـ تماما ···

ـ ماذا تعنين ؟

ـ لا شيء ·

وتقدم الرجل خطوة من النعش قائلا :

ـ أنك لم تدركي ما أعني · لقد خيل الي أنك في - ولقد فزعت لمجرد هذا الخاطر · لقد فرغنا لتونا من ترقيمها ·

ـ نعم ·· ! أعطيناها رقم ١٨ ·. اننا لا نهتم بالاسماء ·· انها عندنا مجرد رقم

وأخرجت ليليان من حقيبة يدها بعض القطع النقدية :

ـ اليك بهذه في مقابل ما سببته لك من فزع

فشكرها الحارس ، وأردف قائلا :

ـ لا تبتئسي يا سيدتي · هذا هو مصيرنا جميعا ·

● ● ●

وقلبت راجعة الى غرفتها ، وأضاءت جميع مصابيحها ، وظلت واقفة وقد استغرقت في تفكير عميق · ان الليل يفزعني · ترى ماذا أنا فاعلة ؟ هل أتعاطى منوما ، ثم أوى الى فراشي بعد أن أترك هذه المصابيح مضاءة ؟ أم هل اتصل تليفونيا ببوريس لنتجاذب أطراف الحديث ؟

ومدت يدها نحو الجهاز ، ولكنها لم ترفع السماعة من مكانها . انها كانت تعرف سلفا ماذا هو قائل لها · كما كانت تدرك انه على حق فيما سيحدثها به أن المنطق لن يجدى في مثل هذه الظروف . ان للناس مشاعرها التي تسيطر عليهم في مثل هذه الاحوال ، وأمام العاطفة لا يوجد محل للعقل .

واستقرت في مقعد بجوار النافذة · أنني في الرابعة والعشرين من عمري ، وهو ما بلغته أجنيس من عمر عند

وفاتها · ولقد أمضيت في هذه المصحة ثلاثة أعوام من سني حياتي · ومن قبل قضيت من عمري ست سنوات تقريبا ، كانت فترة حرب عالمية طاحنة . ماذا أعرف عن الحياة ؟ لست أعرف سوى الدمار ، والدموع والرعب ، وموت الوالدين ، والجوع ، والهروب من بلجيكا ، ثم هذا المرض الذي كان نتيجة لسوء التغذية والتشرد ·

وقبل ذلك ، لم أكن سوى طفلة ساذجة · ولا أكاد أن أذكر كيف تبدو المدن في زمن السلم . أن كل ما يعلق بذاكرتي هو الاظلام والسيل المنهمر من القنابل ، ثم الاحتلال ، والخوف والتواري ، والبرد . أما السعادة ؟ تلك الكلمة التي طالما أوحت الي بالاحلام الرائعة ـ ما أبعد ادراكي لمعناها · لقد كانت سعادتي في غرفة غير دافئة ، ورغيف من الخبز ، وجحر منزو · وأخيرا انتهى بها المطاف الى هذه المصحة ·

وتطلعت بعينيها من النافذة لترى عربة تقل قد وقفت بباب المصحة . لعلها في انتظار نعش أجنيس سومرفيل منذ عام كانت أجنيس قد قدمت الى هذه المصحة ضاحكة ، متدثرة في فرائها تحمل بين يديها باقة من الورد · وها هي الآن تحمل خفية من الباب الخلفي ، وكأنها سقط المتاع ·

ومنذ ستة أسابيع ، كانت تتحدث الى ليليان عن خططها بعد مغادرة المصحة . الرجل ـ انه السراب الذي لم يصبح حقيقة .... الحلم الذي لم يتحقق .

وسمعت رنين التليفون · وترددت قليلا قبل أن تجيب النداء ·

ـ بوريس ، أجل · أجل ، سأحاول أن أكون عاقلة ـ أجل ، أعرف أن هذا هو ما يحدث في كل مكان ، ولكن

انسان ـ أجل ، انه مقدر على جميع البشر ـ أننى أدرك هذا تمام الادراك ـ أجل ؛ وأعرف أن الكثيرين من المرضى يقدر لهم الشفاء من علتهم ـ كلا ، لا حاجة بك للحضور .. أجل ، أحبك ، بكل تأكيد .

وأعادت السماعة الى مكانها . وهمست قائلة وهى تتأمل صورتها فى المرآة ، « العقل » ! . وشعرت بأنها ترى أمامها وجها غريبا عنها ، بنظرات أنكرتها « عاقلة ! » رباه : لقد كنت عاقلة أكثر مما يجب ولم أفادنى هذا ؟ أو لتكون نهايتى أخيرا الى الغرفة رقم ٧ بجوار المصعد الخلفى ؟ مجرد شىء يودع فى صندوق خشبى أسود يفزع منه الناس .

والقت نظرة على ساعة يدها . انها لم تبلغ بعد التاسعة . وهاهو ذا الليل أمامها حالك الظلمة ، يمتد الى حدود الأبد ؛ بجنبات من الملل والانقباض ـ مثل الحياة الرتيبة ؛ وانقباض الوجود العليل .

ونهضت ليليان عن مقعدها . فلم يعد لها قبل بهذه الوحدة المفروضة عليها « لابد وأنها ستجد من تقضى معه بعض الوقت بالطابق الأول ـ على الأقل هولمان وصديقه الضيف .

● ● ●

وكان بالقاعة ، بخلاف هولمان وكلير فايت ، ثلاثة من مواطنى أمريكا الجنوبية ، رجلان وامرأة بدينة مكتنزة الوجه . وكانوا جميعا يرتدون ثياب الحداد ؛ جالسين فى صمت مطبق .

وتحدث عنهم هولمان قائلا :

ـ انهم قادمون من بوجوتا ، بناء على برقية من

المصحة . أن ابنة أحد الرجلين كانت تحتضر . غير أن الفتاة قد تحسنت حالتها قليلا بعد قدومهم . وهم الآن فى حيرة من أمرهم ـ هل يعودون أدراجهم أم يمكثون .

ـ لماذا لا تتخلف الأم ويعود الرجلان ؟

ـ ليست هذه المرأة والدتها ، انها زوجة أبيها . وهى التى تقوم بدفع نفقات اقامة الفتاة . وفى الحق أن أحدا منهم لا يرغب فى البقاء ، بما فى ذلك الوالد . لم يكن يعنيهم من مانويلا سوى دفع نفقات اقامتها وهذا ما كان منهم طوال خمس سنوات . وما لم تبلغ حالة مانويلا الصحية حد السوء واليأس ، ما كانوا ليفكروا فى زيارتها . لقد قدموا استيفاء لشكليات المجتمع . وقد رأت الزوجة الثرية الغيور الا تدع زوجها يحضر بمفرده فاصرت على أن تصحبه وأصطحبت معها شقيقها ـ الرجل الآخر . ويقولون فى بوجوتا أن الزوجة هى صاحبة الاقتراح بالحاق الابنة بالمصحة لابعادها عن والدها ولقد رأت باصرارها على السفر مع زوجها أن تصيب عصفورين بحجر واحد ، ملازمة زوجها ، وتأكيد حبها لابنة زوجها ، نفيا لما يتقولون به عليها .

ـ وماذا عن مانويلا ؟

ـ لقد رفع قدومهم من حالتها المعنوية ، وكان هذا هو السبب فى تحسن صحتها . غير أن ضيوفها بدأوا يضجرون ، وما أحسبهم بعد أسبوع الا ناقمين عليها بسببه لهم من ازعاج .

ـ وأنى لك كل هذه المعلومات ؟

ـ لقد قلت لك انه لا توجد هنا أسرار . لقد أفضت زوجة الأب بدخيلة نفسها الى الممرضة كورنيليا التى تلم باللغة الاسبانية .

ونهض الثلاثة المتشحون بالسواد ، ولم يكن احدمنهم قد نطق بكلمة واحدة . ومشوا في صف متتابع الى الباب .

وكادوا أن يصطدموا بليليان فنكرك ، التى أقبلت مسرعة بصورة افزعت المرأة البدينة التي انتحت جانبا لفسح الطريق لها فزعة . واتجهت ليليان راسا ، وهى تكاد ان تركض ، الى حيث كان يجلس كل من هولمان وكلير فايت . ثم استدارت وتطلعت الى الزائرين الثلاثة قائلة :

ـ ترى ماذا افزعها ؟ ما احسبنى شبحا ؟ أم تراني كذلك ؟ يبدو أننى أسبب الفزع للجميع الليلة .

فسئلها هولمان :

ـ ترى من كنت سببا فى فزعه سواها ؟

ـ الحارس .

ـ ولكنك لا تفزعيننا .

واستفسرت منه عن رئيسة الممرضات قبل ان تجلس فقال لها :

لم أرها بعد . غير أننى لا أستبعد قدومها الآن لتلقى بنا خارج القاعة . أنها كجندى البروسى صرامة ودقة .

ـ يمكننا ان نتسلل الى الخارج الليلة . جوزيف هو الحارس .

ـ الى أين ؟ الى فندق بالاس ؟

ـ وهل يوجد ما هو أصلح منه ؟

وانبرى كلير فايت قائلا ، لن نجد ماتبغى من ترفيه . أننى قادم لتوي من هناك » .

فضحك هولمان قائلا : « أننا لانبغي سوى التغيير . أن أي مكان خارج المصحة يعد مثيرا لنا . أنك بعد قضاء

فترة هنا لن تصبو الى الكثير » . وأسرعت ليليان تقول : « يمكننا ان نعجل بالتنفيذ الان ، قبل أن ينضم الحارس الاخر الى جوزيف » .

فأجاب هولمان : « أشعر بوعكة هذا المساء . ربما كان هذا بسبب ما فوجئت به من اثارة . قد لا استطيع التسلل هذه الليلة . وماذا عن بوريس ؟ الن ينتظرك ؟

ـ انه يعتقد أننى آويت الى فراشي .

ـ هاهى رئيسة الممرضات قد اقبلت .

وعند الباب ، كانت تقف الرئيسة . وبابتسامة مقتضبة بادرتهم قائلة :

ـ أى طيور الليل ، كما كنتم دائما . لقد آن وقت الانصراف . هيا ، كل الى فراشه ! أن الغد يوم آخر .

ونهضت ليليان محنقة : « وهل انت واثقة من قدوم الغد ؟ » .

ـ كل الثقة .. ستجدين العقار المهدىء فوق منضدة الفراش . أرجو لك ليلة هادئة واحلاما سعيدة .

●●●

وعقب هولمان على قول الرئيسة : « ترى لماذا تحرص الممرضات على معاملة كل نزيل ق المستشفى معاملة الاطفال القصر أو السذج الغافلين ؟ » .

وكان ثلاثتهم واقفين بالردهة أمام باب المصعد . وسألت ليليان الضيف الجديد ، الى أين أنت ذاهب ؟ » .

فشملها كلير فايت قائلا : « الى فندق بالاس » .

ـ هلا اصطحبتنى معك .

ـ ولم لا ؟ هل ترغبين فى ذلك الان ؟ هيا بنا .

ـ كلا عليك بمغادرة المصحة من الباب الرئيسى ،

حيث تقف كبيرة الممرضات للمراقبة . ثم اتجه رأسا الى حيث تستأجر عربة جليد ، تعود بها الى الباب الخلفى للمصحة ، حيث ساكون فى انتظارك .

ـ حسنا .

وانبرى هولمان يعتذر الى كلير فايت عن عدم مصاحبته له ، ثم استقل المصعد مع ليليان . واتجه كلير فايت صوب باب الدخول الرئيسى حيث وجد كبيرة الممرضات فحياها تحية المساء ، منصرفا .

● ● ●

مضى فى سبيله الى أن وجد بغيته . وعاد بعربة الانزلاق الى الباب الخلفى للمصحة حيث وجد ليليان فى انتظاره ، وقد ارتدت معطفا من الفراء الاسود . وقالت له :

ـ « كل شىء على ما يرام . لقد تسلمت المفتاح من جوزيف فى مقابل زجاجة من الخمر » .

واستقرت الى جواره فى دعة . وسألته أن يشعل لها لفافة تبغ . فلما استفسر منها عما اذا كان مصرحا لها بالتدخين ، أجابته فى حدة بأنه غير محظور عليها ذلك . وأدرك من لهجتها أنها لا تصدقه القول . وبعد ان قدم اليها بغيتها ، سألته فى هدوء :

ـ من أين بدأت رحلة اليوم ؟ من مونت كارلو ؟

ـ من فيينا .

ـ فيينا ؟ عاصمة النمسا ؟

ـ فيينا بالقرب من ليون . انها مدينة فرنسية هادئة ، صغيرة ، تعرف بأن أحسن مطعم فى فرنسا ـ مطعم البيراميد .

ـ هل جئت عن طريق باريس ؟

ـ كلا ، انها بعيدة الى الشمال .

ـ اى طريق سلكت ؟

ـ الطريق العادى . طريق بازل .

ـ وكيف وجدته ؟

وتساءل فيما بينه وبين نفسه دهشا عن السر فى كل هذه الاسئلة عن الطريق الذى سلكه فى رحلته . وأجابها :

ـ « طريق يمتد تحت سماء مكفهرة وبين حقول متشابهة ، الى أن يبلغ بك جبال الالب » .

وكان يسمع ترديد انفاسها . ثم استطاع أن يرى وجهها على ضوء مصباح منبعث من متجر للساعات ، وتبين فيه امارات الدهشة ، والسخرية ، والحزن . وسمعها تردف قائلة :

ـ «ريف ممتد مستو ؟ رباه ! انتى اجود بأى شىء فى سبيل الا أرى هذه السلسلة من الجبال التى تحيط بى » .

وفجأة ، ادرك السبب الذى من أجله تلح فى استفساراتها عن الطريق الذى سلكه ، وكيف كان يبدو لقد كانت هذه الجبال بمثابة الجدران التى تحول بين نزلاء المصحة وبين ما يضطرب الناس فيه من حياة عادية . انها كانت تمثل لهم الامل والرجاء ، وان كانوا لا يستطيعون منها فكاكا . لقد كانت دنياهم قاصرة على هذه البقعة من الكون بعيدا ، بحيث كان العالم الخارجى يبدو لهم فردوسا مفقودا .

وسألها : كم من الزمن قضيت هنا ؟

ـ ثلاثة اعوام .

ـ ومتى يتيسر لك الرحيل ؟

— فلتسأل في ذلك مدير المصحة . انه يعدني من شهر لآخر باقتراب اليوم الموعود — تماما كما تفعل الحكومات المشرفة على الافلاس بتجديد خطتها الرباعية فترة بعد أخرى .

وتوقفت عربة الانزلاق عند أحد منحنيات الطريق الرئيسي ، حيث اعترض سبيلهم فريق من هواة الانزلاق .

وقالت ليليان في عصبية بادية :

— ان مثل هؤلاء يبذلون الكثير في سبيل زيارة هذا المكان ، بينما تجدنا على استعداد للتضحية بأي شيء في سبيل مغادرته .. أليس في هذا ما يدعو للسخرية ؟

— هذا يتوقف على الزاوية التي يرى من خلالها المرء هذا المكان .

واستأنفت العربة سيرها ، وسألته أن يشعل لها لفافة تبغ أخرى . وبعد فترة تأمل استطردت قائلة :

— لست أدري ما اذا كنت تعي ما أقول وتدرك كنهه أن شعورنا هو شعور المعتقلين في معسكر لا يعرفون شيئا عن اليوم الذي ينطلقون فيه منه .

— انني ادرك هذا الشعور تمام الادراك ، لانني كنت في معسكر اعتقال في يوم ما . ان أي مكان تقيد فيه حرية الانسان ، هو في نظره سجن ؛ حتى ولو كان الجنة . ان الحرية هي حلم المرء الذي ينعكس على العالم الخارجي ، ولو كان صحراء جرداء .

— وكيف تخلصت من سجنك ؟

— كنت قد أعددت خطة للهرب .

— وهل وفقت ؟

— أجل . والا لما كنت معك الآن .

● ● ●

توقفت العربة أمام الفندق . وتبين كلير فايت أن ليليان لا ترتدي الحذاء المطاط الواقي . فحملها بين ذراعيه من العربة الى باب الفندق قائلا : لم تصنع الاحذية الرقيقة لخوض الثلج . هل تذهب الى البار ؟ .

— أجل . انني بحاجة الى كأس من الخمر .

وفي حانة الفندق ، اتخذا لهما مائدة في ركن منها ، وأمرا الساقي بأن يأتيهما بشراب يبعث الدفء في أطرافهما . ورآها تحدق النظر فيه لتستشف حقيقة أمره ، والاسلوب الذي ينتهجه في معاملته لها ، فقد كانت تخشى أن يعاملها معاملة المرضى — تلك المعاملة التي أصبحت عقدتها النفسية .

وعاد الساقي بالنبيذ . وبعد أن أودع الكؤوس المائدة قال :

— انت مطلوب في التليفون ، يا سيدي .

— من عساه أن يكون ؟

— لست أدري ، يا سيدي . وهل أعود لاستفسر .

فنهض كليرفايت عن مقعده . وعندئذ قالت له ليليان

— انها رئيسة المرضات ، ما في ذلك من شك .

● ● ●

بعد أن عاد كلير فايت ، سألته ليليان :

— هل هي رئيسة المرضات ؟

— كلا . انها مستشفى مونت كارلو ، حيث توفي صديق لي .

— هل من المتعين عليك أن تعود الى هناك ؟

— كلا .. لا يوجد ما يدعو الى شيء من هذا القبيل . لقد كنت أفضل له أن يموت .

— كيف ؟

— لأنه كان سيقضى البقية الباقية من حياته فى حالة عجز تام ، اثر اصابته فى حادث تصادم بسباق كان يشترك فيه .

وحملقت ليليان فيه غير راضية عما سمعته ثم سمعها تقول له فى صوت خافت يفيض اشمئزازا :

— او ليس من حق العاجزين أن يعيشوا ؟

وآثر كلير غايت الا يبادر بالاجابة ان صوت المرأة الاجش — تلك المرأة التى اتصلت به تليفونيا — لم يزل يتردد بصداه المعدنى :

« ماذا تراني فاعلة ؟ ان فيرر لم يترك بنسا واحدا . فلتسرع بالعودة ! اننى فى حيرة من امرى . انها مسئوليتكم جميعا . انتم وسباقكم اللعين . »

وابعد عن خاطره ما انطبع فى ذهنه من اثر لهذا الحديث ، وعقب على لومها له قائلا :

— ان الامر يتوقف على تقدير الظروف الخاصة لكل حالة . ان هذا الرجل كان مدلها فى حب امرأة خدعته بكل ما اوتيت من وسيلة . وكان يهوى السباق الى درجة الجنون ، وان كان لم يقدر له ان يوفق فيه . لقد كانت كل اماتيه فى الحياة ان يفوز فى مباريات السباق الكبرى ، وان يحتفظ بحب هذه المرأة . وقد قضى نحبه قبل أن يكتشف حقيقة وضعه من الامرين — كما أنه رحل عن هذه الدنيا دون أن يعرف أن تلك المرأة لم تقف الى جانبه بعد أن بترت ساقه . ومن هنا ، رايت أن هذه النهاية كانت خيرا له .

— وما ادراك أنه لم يكن متعلقا بالحياة ، على الرغم من هذه الظروف ؟

وآثر كلير غايت ان يلتزم جانب الصمت ، وراح يستعرض ما قاله وما سمعه منها . كما عاد يستعرض حديث المرأة التليفونى ، وما واجهته به ؛ وأخيرا قال فى صبر نافد :

« لا يمكن لاحد أن يهرب مما قدر له ، ولايعرف أحد شيئا عن كيف ومتى سيحل به قدره . فيم التعلق بأهداب حياة طويلة ؟ ان هذا ليس سوى التمسك بماض طويل المدى . اما المستقبل فليس باطول مدى من حركة تنقضى قد تتوقف فى أعقاب أخرى تتردد فى صدورنا والانسان عاجز عن الاحاطة بما حوله فيما عدا ذلك . فلنشرب نخب هذا . »

— نخب ماذا ؟

— نخب العدم . . او قولى نخب قليل من الشجاعة .

— لقد ضقت ذرعا بالشجاعة ، وبالمواساة ؛ أيضا . فلتحدثنى بما تبدو عليه الحياة عبر هذه الجبال .

— سماء مكفهرة لم يتوقف مطرها لعدة اسابيع .

— أما هنا ، فلم تمطر السماء منذ شهر اكتوبر الماضى . نحن لا نرى هنا سوى الثلوج المتساقطة . . لقد كدت أن أنسى كيف تكون الامطار .

• • •

وحين مغادرتهما للفندق كان البرد يتساقط . واوما كلير غايت الى عربة انزلاق ، استقلاه الى الباب الخلفى للمصحة .

وقالت ليليان له وهى تهم بمغادرة العربة :

— شكرا . ومعذرة — فقد كنت بئس الرفيق . غير أنه لم يكن فى وسعى أن أنفرد بنفسى الليلة .

ـ وهذا ماكان من شأني ... أنا الآخر .

ـ أنت ؟ ولماذا ؟

ـ السبب واحد . ولقد حدثتك بما كان للمحادثة التليفونية من وقع في نفسي . تلك المحادثة من مونت كارلو .

ـ ولكنك قلت أن وفاته كانت من الخير له .

ـ ان قولي هذا لا يعني أنني لم أفتقد صديقي . ان الأقوال أحيانا لا تعبر عن حقيقة ما يشعر به الانسان تعبيرا شاملا . اليك هذه الزجاجة من الفودكا .. ليلة عادئة .

الفصل الثالث

صحا كلير فايت على صبح يوم معتم وسماء ملبدة بالغيوم . وعلق الساقي على هذا الطقس بقوله :

« ياتلك الرياح الدافئة التي تشعر الانسان بالانهاك والضجر .. ! انها لتضاعف من شعور المرء بآلام جراحه القديمة . »

ـ هل أنت من هواة الانزلاق على الجليد ؟

ـ كلا . ان جراحي من مخلفات الحرب .

ـ كيف لسويسري أن لا يهوى الانزلاق .. ؟

ـ انني نمساوي . ولقد مضت وولت تلك الايام التي كنت أمارس فيها هواية الانزلاق على الجليد . لقد تركت لي الحرب ساقا واحدة . وهذا الطقس الدافىء يضاعف من شعوري بالألم ، وقد كادت برودة الطقس أن تنسيني اياه .

وقرر كلير فايت أن يؤجل رياضة الانزلاق في هذا اليوم العاصف . علاوة على ماكان يشعر به من صداع شديد ، بسبب اسرافه في الشراب عقب عودته ليلا . لقد أثارت فيه هذه الفتاة الشديدة التعلق بالحياة ماكمن من مشاعر

وآمال . كما بعث فيه موت صديقه من الهواجس ما رسب فى قاع وجدانه .. لقد كاد أن يتجاوز ربيع الحياة .. بدون هدف ، وبدون معين .

ونهض يرتدي معطفه ، الذي وجد في أحد جيوبه قفاز ليليان المخملي الاسود ، وكانت قد نسيته فوق المائدة في الليلة السابقة . وأعاد القفاز الى جيبه ، ليعيده اليها فيما بعد .

● ● ●

مشى على غير هدى فوق الثلوج ، الى أن حملته قدماه الى مبنى صغير مربع الشكل ، بعيدا عن الطريق على مشارف الغابة . وكانت تعلوه مدخنة ينبعث منها الدخان . وأثارت فيه رؤية هذا المبنى ذكريات بذل قصارى جهده طوال هذه السنين ليمحوها من ذهنه وينسى أمرها . واستفسر من صبي عما عساه أن يكون هذا المبنى ، فأجابه بانه دار حرق الجثث .

اذن ، فلم يكن مخطئا فى حدسه .

وعقب على اجابة الصبي قائلا :

ـ هنا ؟ ولماذا تحتفظون بدار لحرق الجثث ؟

ـ هذا بناء على طلب المستشفيات .

ـ وهل بلغ عدد الموتى هذه الكثرة ؟

ـ لم يعد عددهم بالكثرة التي كان عليها من قبل .. إن الشتاء هنا طويل قاس . وفي الشتاء يصبح من المتعذر شق الارض .. ان قشرة الارض تصبح صلدة كالصخر ، ويبلغ عمق الجليد أمتارا . ولذلك كان من الايسر حرق الجثث ، أولى من محاولة دفنها ، أو شحنها في السفن في صناديق من الزنك الى حيث تتسلمها أسرها . ان الناس

يميلون الى الاقتصاد في النفقات ، والزمن يتغير ، وأساليب التفكير قد تغيرت أيضا .

ـ انك فتى ممتاز ، واسع الاطلاع ، سليم التفكير .

ـ لقد تعلمت من والدي الكثير . لقد كان متعهدا لنقل الموتى سابقا ، وسافر الى كثير من البلدان .

ـ وما هو عمله الآن ؟

ـ بائع زهور . فهذا المتجر الموجود في مواجهتنا هو مستقره الآن . اذا ما كنت بحاجة الى شيء منها ، تستجدها لدينا بأقل سعر .

وفكر كلير فايت مليا . باقة من الازهار ؟ ولم لا ؟ أيوجد ما يمنع من أن يبعث بباقة منها الى تلك الفتاة الثائرة المقيمة بالمصحة ؟ انها قد تثلج صدرها . ويا حبذا لو اكتشف أمر الباقة صديقها الروسي . واتجه الى المتجر .

وخف لاستقباله رجل قصير القامة يرتدي حلة داكنة اللون . وتأمله كلير فايت بعينين فاحصتين . كما جال في أركان المتجر بنظرات فاحصة . ووجد أن المتجر لا يحوي من الازهار سوى العادي المتواضع ، اللهم الا قلة لا تتفق والمكان . وراح الرجل يطري هذه المجموعة مشيدا بجمالها ، وحداثة عهدها . وأمره كلير فايت باعداد باقة منها . ثم أخرج قفاز ليليان المخملي الاسود من جيبه ، قائلا :

« وهل يمكن وضع هذا مع الباقة . وهل أجد لديك بطاقة ومظروفا ؟ »

● ● ●

فقفل كلير فايت راجعا الى القرية . وشعر بأن رائحة

الدخان المتصاعد من دار حرق الموتى لا زالت تزكم أنفه ، رغم أنه كان بعيدا بحيث لا يمكن أن تحمله اليه الرياح · ان هذه الرائحة ليست سوى رواسب تذكريات سابقة لأفران كانت تشتغل ليلا ونهارا ـ تلك الأفران بقرب المعسكر الذي كان معتقلا به وهذه الذكريات التي كان يريد أن ينسى أمرها ·

ودخل احدى الحانات ، وأمر باعداد مشروب قوي في كأس مزدوج . وبعد أن التقى بمحتويات الكأس في جوفه ، أمر باعداد آخر ، وراح يتذوقه ، ويعبث بالكأس بين أصابعه ، مستغرقا في تفكير عميق ·

● ● ●

وبعد هذا ذهب الى الجاراج ليطمئن على سيارته . وكانت السيارة مودعة في الناحية الاخرى منه ، ومقدمتها الى الجدار . وتوقف كلير فايت عن السير عند المدخل · واستطاع أن يرى من حيث كان ، شخصا ما يجلس الى عجلة القيادة · واستفسر من مدير الجاراج : « ترى هل من دأب عمالك أن يفعلوا هذا ؟ »

ـ انه ليس بأحد عمالي ·· انه رجل يزعم أنه صديق لك ·

وراح كلير فايت يحدق النظر في الجالس الى عجلة القيادة ، الى أن عرف فيه صديقه هولمان · وسأله المدير :

ـ أليس كذلك ؟

ـ بلى . منذ متى كان قدومه ؟

ـ منذ دقائق فقط ·

ـ وهل هذه هي أول مرة ؟

ـ كلا . لقد حضر في الصباح المبكر .

وكان هولمان جالسا الى عجلة القيادة ، موليا ظهره الى كلير فايت · وليس من شك في أنه كان يجلس جلسة الحالم بأنه يقود سيارته في السباق · وبعد أن وقف كلير فايت يتأمله قليلا ، انسحب في هدوء الى الخارج ، وقد أومأ لمدير الجاراج بأن يتبعه ،

ـ لا تقل له أنني كنت هنا ورأيته · دعه يفعل بالسيارة ما طاب له ·· واليك مفاتيح السيارة لعله أن يسألك تسليمها له · فاذا لم يفعل هذا ، فلتدع المفاتيح في السيارة بعد رحيله ، استعدادا للمرة القادمة . هل فهمت ما أعني ؟

ـ أجل . انك تريد مني أن أدعه يفعل ما يشاء بالسيارة بما في ذلك الانطلاق بها ·

ـ تماما · فلتترك له مطلق الحرية ، كأن السيارة ملك له ·

● ● ●

في ساعة تناول طعام الغداء بالمصحة التقى كلير فايت به ، وبدا هولمان متعبا · وبادر صديقه قائلا : « تلك الرياح الدافئة ، انها تشعر المرء بأنه ليس على ما يرام · وانها لتجعل من النوم شيئا صعب المنال · كيف قضيت ليلتك ؟ »

ـ لقد تعاطيت كثيرا من الخمر ·

ـ بعد أن افترقنا .

ـ في طقس مثل هذا ، يلزم كل منا فراشه .

وتطلع كلير فايت فيما حوله . ولم يكن بقاعة الطعام كثير من الناس · وكان الضيوف الذين من أمريكا

الجنوبية قد اتخذوا لهم مجلسا في ركن منها . أما ليليان فلم تكن موجودة .

وبادر كلير فايت صديقه بسؤاله :

ــ هل غادرت المصحة اليوم ؟

ــ كلا . هل سمعت شيئا عن فيرز ؟

ــ لقد وافته المنية .

وران عليهما صمت مطبق . ولم يكن ثمة ما يقال في هذا المجال .

وأخيرا قال هولمان : « ماذا تزمع عمله بعد ظهر اليوم ؟ » .

ــ سأنام قليلا ، ثم أقوم بجولة . لا تشغل نفسك بأمري . انني أنعم بفترة استرخاء هنا .

وفتح باب القاعة . ووقف به بوريس فولكوف بجبل عينيه ، ثم أومأ برأسه محييا هولمان وقد تجاهل كلير فايت ، ثم أغلق الباب منصرفا .

وانبرى هولمان قائلا : ــ انه يبحث عن ليليان . والله يعلم أين هي الآن . كان ينبغي أن تكون في حجرتها .

ونهض كلير فايت وهو يقول : « سأنصرف لاستريح قليلا . الحق معك أن الطقس اليوم لا يطاق . هل يمكن أن تشاركني طعام العشاء الليلة ؟ » .

ــ بكل تأكيد . انني اليوم أحسن حالا .

ــ اذن : فليكن لقاؤنا في الثامنة مساء ، بهذه القاعة .

ــ في السابعة ، ما لم تكن ترغب في تناول عشاءك في مكان آخر ؟ بدأت تشعر بالسأم ؟

ــ كلا . فلم يسبق أن أتيحت لي فرصة للاستجمام مثل هذه الفرصة . ان السأم أصبح من الامور النادرة في عصرنا هذا لم يعد العالم ليعرف غير الحركة الدائبة .

هل تريد أن آتيك بشيء خاص معي ؟

ــ كلا . شكرا . وبالمناسبة ، ستقيم احدى الايطاليات حفلا الليلة هنا . انها تدعى ماريا سافيني . وستقام المأدبة في الخفاء ، بدون أدنى شك .

ــ وهل دعيت الى هذه المأدبة ؟

ــ انهم يقيمون مثل هذه المآدب دائما بعد وفاة احد المرضى .. لقد حانت ساعة القيلولة .. اضطجع مسترخيا في هدوء . الى اللقاء ليلا .

وأخيرا توقف السعال .. واستلقت ليليان دنكرك منهوكة القوى . لقد دفعت ثمن ما أجهدت به نفسها طوال الامس ، ليلا ونهارا . وكانت تترقب في صبر نافد قدوم الممرضة . وكان هذا اليوم ، هو اليوم المحدد لصورة الاشعة .

وعلى الرغم من أن دخولها غرفة الاشعة كان روتينا متجددا ، الا أنها كانت تشعر بالحرج من وقوفها نصف عارية خلف الشاشة ، وقد كشفت الاشعة عن دقائق جسدها ، ما بطن منه وما ظهر .

وأقبلت الممرضة أخيرا ، وبادرتها ليليان بسؤالها :

ــ ترى من سبقتني الى الفحص ؟

ــ الآنسة سافيني .

ــ ونهضت ليليان تتبع الممرضة الى المصعد . وعلمت منها بما طرأ على الطقس من تغير . وراحت تستعرض في خاطرها ما سيعقب هذا من جو رطب ، وهواء ثقيل ، وضيق تنفس في الصباح . والتقت بماريا سافيني خارج غرفة الاشعة . واستفسرت منها ليليان عما كشفت عنه الاشعة ، فأجابتها :

ـ لم يصارحني الطبيب بشيء . ماذا ترين في ثوبي هذا ؟

ـ رائع !

ـ هل حاز اعجابك حقا ؟ انه من فلورنسا . هل ستلبين دعوة الليلة ؟

ـ لم اقرر بعد .

ـ يحسن بك أن تشاركينا هذه الامسية . لقد حصلت على أسطوانات جديدة من أمريكا .

وأسرعت ليليان بدخول غرفة الاشعة ، تلبية لاستعجال الممرضة لها . ووجدت مدير المصلحة في انتظارها . وبعد أن اطلع على الرسم البياني لدرجات الحرارة ، راح يتمتم بشيء الى مساعده ، دون أن تتبين ليليان شيئا مما كان يقوله . وبعد أن نحى الرسم البياني جانبا ، شرع في فحصها بالاشعة ؛ في تأمل واهتمام . وطالت فترة الفحص عن ذي قبل ، الى أن شعرت ليليان بالاجهاد وراح كبير الاطباء يناقشها ويحاورها ؛ وكانت رئيسة الممرضات قد أفضت اليه بشيء .

وأدركت ليليان من ملابسات هذا الفحص ، الذى تجاوز حدود ما سبقه ؛ أن حالة رئتيها لم تتحسن ، بل ازدادت سوءا . وألحت على الطبيب في أن يصارحها بحقيقة ما أسفرت عنه نتيجة الفحص ، فقال لها في اقتضاب :

ـ يحسن بك أن تلازمي الفراش لبضعة أيام .

ـ أن ملازمة الفراش تضاعف من سوء حالتي .

ـ اذن ، فليكن هذا قاصرا على اليوم فقط ، على الا تغادري غرفتك لبضعة أيام .

وأمر لها بالعلاج المناسب .

عادت ليليان الى غرفتها ، وصبت لنفسها كأسا من الفودكا . وراحت تتأمل صورتها في المرآة؛ لتتثبت من انها لم تزدد نحولا . وما أن سمعت وقع أقدام الممرضة التي كانت تحمل اليها طعام عشائها، حتى أسرعت تخفي الزجاجة بين طيات الفراش .

وبادرتها الممرضة معنفة : « لماذا لا تلازمين فراشك كما أمر الطبيب ؟ اليك هذه اللفافة التي أرجح أن بها أزهارا » .

وتبادر الى ذهن ليليان أنها من بوريس ، الذى ألفت منه ذلك ، فلم تسرع بفضها .

وبينما راحت ليليان تلتقط القليل من طعامها ، كانت الممرضة تقوم باعداد فراشها . ثم سألتها أخيرا :

ـ ألا تحبين سماع الراديو ؟

ـ الامر عندي سيان .

وبدأت الممرضة تدير الراديو ، متنقلة بين مختلف المحطات ، الى أن توقف عند احدى اذاعات باريس ، التي كانت تذيع عزفا على البيانو لقطعة موسيقية من روائع ديبوسي . ووقفت ليليان بالنافذة تنتظر في صبر نافد انصراف الممرضة بعد أن تفرغ من عملها . وسمعتها تسألها ؟ هل تعرفين باريس ؟!

ـ أجل .

ـ لم يسبق لي أن زرتها . لابد أنها مدينة رائعة .

ـ حينما كنت في باريس ، كانت مدينة مظلمة ؛ قاتمة ، مقبضة ؛ يحتلها الالمان .

ـ لقد انتهت هذه الظروف الشاذة الآن . وليس من شك في أنها عادت الى سابق سيرتها قبل الحرب . ألا تتوقين الى زيارتها ثانية ؟

— كلا . ان زيارة باريس فى الشتاء غير مرغوب فيها • هل فرغت من عملك ؟

— تقريبا • وفيم العجلة في مكان مثل هذا ؟

واخيرا غادرت الممرضـــة الغرفة واسكتت ليليـــان الراديو .

نعم ، انها لعلى حق فيما قالت فلا يوجد فى هذا المكان ما يدعو الى العجلة • ليس ثمة سوى الحياة المملة الرتيبة . حياة كلها انتظار وترقب .

وشرعت تفض اللفافة .• وما ان وقع نظرها على ما بها من أزهار ، حتى تركتها تسقط من بين يديها وكأنها رأت فى طياتها حية تسعى . وراحت تحدق النظر فى زهرة الاوركيدة المستقرة بين قدميها . انها تعرف هـــذه الازهار ، أم تراها مجرد مصادفة ؟ ويالها من مصادفة • ان الزهر يتشابه • ولكنها كانت تشعر فى قرارة نفسها ان هذا التشابه ليس من قبيل المصادفة . ان زهر الاوركيدة ليس مما يوجد فى هذه القرية • لقد حاولت ابتياع البعض منها ، وبعد أن اعياها البحث بعثت فى طلبها من زيورخ . وراحت تحصى زهر الباقة ، فوجدت عددها مطابقا لعدد ما كان بالباقة الواردة من زيورخ .

اذن، فليس ثمة مجال للشك .. ان هذه الباقة هي بذاتها الباقة التى اودعتها نعش اجنيس سومرفيل. رباه ! ما هو تعليل ذلك ؟ هل هى دعابة سخيفة من بعضهم ، ولماذا ؟ وكيف يحدث هذا ؟ كيف عادت هذه الباقة الى ؟ وماذا يعنى هذا القفاز المودع معها ، وكأنى به يد الموت السوداء تمتد الى منذرة متوعدة ؟

وخطت تبتعد عن هذه الباقة وكأنها أفعى سامة شريرة ان هذه الباقة لم تعد فى جمال الزهور . لقد

جعلت صلتها بالموت شبحا كريهـــا بغيضا . وسارعت تلتقطها وتلقى بها من نافذة غرفتها .

وعادت لترى القفاز المخملى الاسود لم يزل فى مكانه فوق الارض . واستطاعت أن تتعرف عليه أخيرا ، وتبادر الى ذهنها أنها نسيته بحانة الفندق حينما كانت فى رفقة كلير فايت • كلير فايت ! وما هى علاقته بهذا كله ؟

واتصلت به تليفونيا • وسألته :

— هل بعثت بقفازى ؟

— اجل . لقد وجدته فوق المائدة بعد انصرافك .

— وهل بعثت الى بباقة من زهر الاوركيدة ؟

— أجل • وكانت بطاقتى مرفقة بها •

— بطاقتك ؟ ومن أين حصلت على هذه الباقة ؟

— من متجر لبيع الزهور . لـماذا ؟

— وهل هو من متاجر القرية ؟

— اجل .. فيم اسئلتك هذه ؟ هل هى مختلسة ؟

— لست أدرى .• ربما •

— هل أحضر اليك ؟

— اجل .

— متى ؟

— فى مدى ساعة •

— فليكن • وليكن اللقاء عند الباب الخلفى •

— تماما •

واعادت سماعة التليفون الى مكانها وهى تحدث نفسها قائلة :

— الحمد لله • ؛ ها هو رجل لا يتعين على أن أتقدم اليه بمبررات مافعل .. هاهو رجل ليس يثقل على

بأسئلته . ها هو رجل لا يعنيه من امري شيئا ولا تقلقه حالتي الصحية ، مثل بوريس .

وعند الباب الخلفي ، كان كلير فايت في استقبالها . وكان قد رأى باقة الزهر ملقى بها فوق الجليد .

فقال لها بعد أن حياها :

ـ الا تحبين زهور الاوركيدة ؟

ـ من اين حصلت عليها ؟

ـ من متجر للزهور عند مشارف القرية . هلا صارحتني بجلية الامر ؟

ـ هذه الباقة .. هي بذاتها الباقة التي كنت قد أودعتها نعش صديقتي بالامس . ان المصحة لا تحتفظ بشيء من هذا القبيل . لست ادري كيف ؟

ـ رباه ، ان هذا المتجر يقع أمام دار حرق الجثث تقريبا .. انه متجر صغير .. ولقد تساءلت فيما بيني وبين نفسي ، انى لمثل هذا المتجر مثل هذه الزهور . هذا يفسر ..

ـ ماذا تعني ؟

ـ اعني انه بدلا من أن تحرق الباقة مع الجثة ، اختلس احد العمال الباقة وباعها الى المتجر .

ـ كيف يحدث هذا ؟

ـ هذا هو التفسير الوحيد لما كان . ان زهور الاوركيدة تتشابه ، ثم أن من فعل ذلك ما كان ليخطر بباله وقوع مثل هذه المصادفة .. أن تعود الباقة لمن سبق أن ابتاعتها .

وتأبط كلير فايت ذراع ليليان قائلا : « من الافضل ان نتخذ من ذلك مادة للضحك من غريزة الجشع المتأصلة في الانسان . فانتنا ان لم نفعل فتتنا الاسى كمدا على ما يصادفنا في عصرنا هذا .. »

ـ أو بلغ الجشع بالانسان هذا الحد ؟ أن يسرق الموتى .

ـ هوني عليك .. هلم بنا نتناول شرابا في مكان ما .

وفتح باب عربة الانزلاق . واستقلاها معا الى الفندق ، حيث تبعها الى الداخل وهو يقول : « ليكن حديثنا هذا المساء عن سطحيات الحياة » .

وبعد أن أمضيا بحانة الفندق حوالي الساعة ، يتجاذبان أطراف حديث عادي ، وقع نظر ليليان على بوريس يجتاز الباب . فقالت :

« ها هو بوريس .. كنت أتوقع هذا .. »

وأقبل الروسي عليهما قائلا ، وقد تجاهل وجود كلير فايت :

ـ ليليان ، ان عربتك في انتظارك بالخارج .

ـ لست بحاجة اليها الليلة .. هذا هو مستر كلير فايت .. لقد التقيتما من قبل .

ونهض كلير فايت عن مقعده متثاقلا ، وانبرى فولكوف قائلا : « حقا ؟ هذا صحيح . معذرة لقد كنت تقود سيارة السباق التي جفلت منها الجياد » .

ولم يعقب كلير فايت بشيء . ولمس لهجة التعالي في صوت فولكوف . ومع ذلك ، فقد ظل واقفا والتفت بوريس يقول لليليان .

ـ هل نسيت أن الغد هو اليوم المحدد لاعادة فحصك بأشعة اكس ؟ .

ـ لم أنس .

ـ يجب أن تنالي قسطا من الراحة وتخلدي للنوم .

ـ أعرف هذا .. لم يزل الليل طويلا .

كانت تتحدث في هدوء وعلى مهل ، وكأنها تجيب طفلا قاصر الفهم . وأدرك كلير فايت أن هذا الاسلوب هو

الوحيد الذي يمكنها به السيطرة على اعصابها . ورثى لحال الروسى الابيض لما اقحم نفسه فيه . ووجد نفسه يقول له :

ـ هلا تفضلت بالجلوس ؟

ويجيب فولكوف ببرود : كلا .. شكرا .

« وكأنه كان يتحدث الى الساقى القائم على خدمتهما .

ثم التفت بوريس الى ليليان قائلا :

ـ اذا كنت تريدين استعمال العربة ..

ـ كلا ! قلت لك أننى ..

وكان كلير فايت قد ضاق ذرعا بهذه المناورة ، فتدخل قائلا فى هدوء :

« لقد اصطحبت الانسة لتذكرك الى هنا ، واعتقد ان فى وسعى العودة بها من حيث قدمنا . »

وحدجه فولكوف بنظرة فاحصة لاول مرة . وقال له مبتسما وقد غير من لهجته .

« اخشى أنك لم تفهمنى ، غير أننى اعتقد انه لا جدوى من الدخول فى التفاصيل .. »

ثم انحنى محييا ليليان قبل أن ينصرف الى البار .

وجلس كلير فايت غير راض عن نفسه ، وهو يتساءل عما هو بسبيله .. اتراه ما زال فى العشرين من عمره ؟

وسألها قائلا : « لماذا لم تعودى معه ؟ »

ـ اتريد أن تتخلص منى ؟

وتأملها قليلا . أنها تبدو فتاة وديعة لا حول لها ولا قوة ؛ والوداعة أخطر سلاح فى يد المرأة .

ثم أسرع يجيبها : « كلا ، بكل تأكيد . انني سعيد بصحبتك .. »

ودارت بعينيها فى الحانة ، لتجد أن بوريس قد اتخذ له مائدة بعيدة عنهما ولم ينصرف . فقالت :

ـ انه لم يفقد الامل بعد .. انك لم تفهمه على حقيقته انه ليس بالغيور .

ـ كيف ؟ أو حقا ما تقولين ؟

ـ أجل . انه قلق من اجلى ، لا يفتأ يبدى اهتمامه بحالتى الصحية .

وصب لها كلير فايت كأسا ، ثم اردفه بكأس له . وقال :

« سنرى ما سوف يكون من امره .. »

وكانا يتطلعان من آن لاخر ناحية المائدة التى كان يجلس اليها بوريس فولكوف . وقال لها كلير فايت :

ـ يبدو أنه عصبى المزاج ؟

ـ ان الجميع هنا يبدون كذلك وحتى صديقه هولمان عصبى المزاج أيضا .. أنه يهم بالانصراف .

ـ وماذا عنك . الم يكن من المستحسن ان تكونى الان فى المصحة ؟

ـ من يدرى ؟ ومن هو المسئول ؟ هلم بنا نرقص .

وظل كلير جالسا فى مقعده . وحملقت ليليان فيه دهشة وهى تقول :

ـ أو أنت الاخر قلق من اجلى ؟ أو تعتقد أنه لا يجب أو ما كان يجمل بى أن ..

ـ اننى لا اعتقد شيئا .. كل ما فى الامر ، اننى لا استطيع أن ارقص . ان احدى ساقى لا تصلح لذلك . غير أنه اذا ما كانت هذه هى رغبتك ، ففى وسعنا أن نحاول .

ونهضا معا الى حلقة الرقص . وسمع ليليان تقول له .

ـ لقد كانت جنيس سومر قبل تطيع أوامر مدير المصحة وتتبع تعليماته حرفيا .. ومع ذلك ماتت .

الفصل الرابع

كان الهدوء يسود المصحة، وقد أخلد المرضى الى الراحة المفروضة عليهم • وكانوا مضطجعين في صمت، في أسرتهم وفوق مقاعدهم المستطيلة، يستنشقون ملء رئتيهم الهواء الدافيء الذي يطارد المرض ويغالبه •

وكانت ليليان دنكرك قد اتخذت من شرفتها مكانا منعزلا لقضاء هذه الفترة العلاجية . وكان الليل قد ولى بأشباحه، وأقبل الصباح يعيد للقلوب الفزعة نور اليقين •

ونهضت الى التليفون تجيب النداء • «بوريس — كلا، بكل تأكيد لا — كيف تكون النهاية اذا ما فعلنا ذلك ؟ — فلنكف عن مثل هذا الحديث — يمكنك أن تزورني — بدون أدنى شك . أجل أنني بمفردي . •»

وعادت الى الشرفة • وترددت لحظة قبل أن تصب لنفسها كأسا من الفودكا . وبعد قليل سمعت باب غرفتها يفتح فقالت :

«بوريس، صباح الخير • هل لك في كأس من الفودكا ؟ يمكنك أن تصب كأسا لك •»

وأقبل فولكوف، يحمل كأسه في يده • وحمدت الله، لأن هذا يعني عدم اعتزامه القاء موعظته المألوفة • وبعد أن صب لنفسه كأسا من الزجاجة الموضوعة أمامها بالشرفة، شربه نخب صحتها قائلا :

— هل حدثك كبير الأطباء بشيء عن صور الاشعة ؟

— كلا، وبماذا يحدثني ؟ انني لا أريد أن أعرف شيئا .

— دعينا من هذا الآن . هل ترغبين في كأس أخرى ؟

— كما تشاء .

وكانت تعلم أنه يعارض في تعاطيها الخمر، وإن كان حريصا على عدم مواجهتها بهذا في تلك اللحظة •

وبعد أن نحت كأسها جانبا، بادرته قائلة :

— بوريس، اننا نفهم الواحد منا الآخر جيدا .

— أحقا ما تقولين؟

— أجل • وانك لتدرك هذا مثل ادراكي له، وفي هذا مبعث شقائنا •

فأجابها ضاحكا «وبالذات حينما تهب الرياح الدافئة •»

— ان الأمر غير قاصر على ذلك •

— أو حينما يحيط بنا بعض الغرباء •

— أرأيت • « أنك تدرك ما أعني • ألم أقل لك اننا متفاهمان . أنك تعرف عني كل شيء مقدما • وهذا هو مبعث قلقي . لماذا لا ألمس منك بوادر الغيرة ؟

— كيف ؟ انني الرجل الغيور دائما .

ورنت اليه بنظرة متسائلة : «ممن ؟ من كلير غايت ؟»

فهز رأسه نفيا • فعادت تسأله :

— اذن، فما هو مصدر غيرتك ؟

وشاء فولكوف ألا يجيب بشيء • ترى، فيم سوء الفهم

هذا ؟ وماذا تعرف هي عن الغيرة ؟ ان الغيرة لا تبدأ بشخص ، ولا تنتهي بنهايته . انها شعور يبدأ بالهواء الذي يتنسمه من تحب ، ولا ينتهي أبدا ، حتى بوفاة هذا الشخص .

واستطردت ليليان تناقشه :

ـ بوريس ، من ماذا ؟ هل هو كلير فايت من أثار فيك هذا الشعور ؟

ـ لست أدري . ربما كان هذا مما حمله معه الينا .

ـ وما عساه أن يكون هذا الشيء ؟ هون عليك . ان كلير فايت سيعود من حيث أتى بعد بضعة أيام ولن يصبح أكثر من ذكرى ، تنسى أمره أخيرا .

وران عليهما صمت مطبق ، بينما كان فولكوف جالسا يتصفح كتابا بين يديه . وظلا في مجلسهما هذا ، الى أن نفذت أشعة الشمس ، فانعكست على عينيها المغمضتين وقطعت حبل الصمت بقولها :

ـ بوريس ، انني أشعر بالرغبة في القيام بعمل جنوني . كأن أحطم هذه الحلقة الزجاجية التي حولي ، منطلقة على غير هدى ـ وليكن ما يكون .

ـ لعل الكثيرين يريدون سلوك هذا المسلك .

ـ وهل أنت منهم ؟ أأنت ممن تتنازعهم هذه الرغبة .

ـ أجل .

ـ اذن ، ما الذي يحول دون تنفيذ هذه الرغبة ؟

ـ لأن تنفيذها لن يغير من الأمر شيئا . لئن فعلنا ذلك ، لما شعرنا بأكثر من أن الحلقة تزداد احكاما ومناعة . وحتى اذا ما تيسر لنا تحطيمها ، فستصيبنا شظايا ، وتنزف دماؤنا حتى الموت ..

ـ وأنت الآخر ؟

وتأمل بوريس الفتاة النحيلة الجالسة أمامه .. ما أقل ما تعرفه عنه ، على الرغم مما تعتقده من فهمها له ، وأخيرا ، وجد نفسه يقول لها ، وان كان يعلم بأنه لا يقول صدقا .

« لقد تقبلت مصيري مستسلما راضيا وعلينا ، قبل أن نحترق بنار كراهيتنا لواقعنا ، أن نحاول تقبله بقبول حسن . »

وشعرت ليليان بموجة طاغية من الضجر .. ها هما يعودان الى المناقشة والى دائرتها المفرغة التي تشعر معها وكأنها أسيرة في خيوط نسيج العنكبوت .. قد يكون فيما يقوله كل الصواب ، ولكن أنى يجدي هذا ؟ لماذا لا ينصرف الآن ؟ ولماذا أشعر بالرغبة في لومه على الرغم مني ؟ ولماذا أشعر بالميل الى التحقير من شأنه لأن مقامه قد طال بهذه القرية ، أكثر مما طال مقامي ، ولأنه يرى بقاءه من زاوية تختلف عن الزاوية التي أراه منها ؟ لماذا يثير حفيظتي أن أرى فيه الرجل السجين الذي يحمد ربه لعدم تنفيذ حكم الاعدام فيه .

ونهض فولكوف ، يحجب شعاع الشمس عنها بمظلة الشرفة ، « ايفاموزر ستغادر المصحة غدا . انها لبادرة طيبة . »

ـ أعرف ذلك . لقد سبق أن غادرته مرتين من قبل .

ـ ولكنها في هذه المرة قد شفيت تماما . لقد أخبرتني رئيسة الممرضات بذلك .

وسمعت في هذه اللحظة ، صوت هدير سيارة كلير فايت قبل أن تتوقف . وتساءلت عن السبب في حضوره بها . فقد كانت هذه أول مرة يستقلها منذ يوم وصوله .

وبعد نصف ساعة ، سمعت ليليان صوت سيارة كلير فابت وهي تبتعد عن المصحة • وكان بوريس قد انصرف .

وظلت مستلقية في مقعدها برهة ، مغمضة العينين • ثم نهضت ، وغادرت غرفتها الى الطابق الارضي •

ولفرط دهشتها ، ابصرت كلير فابت جالسا فوق مقعد في مواجهة المصحة • فخرجت اليه تقول :

« لقد خيل الي انك انطلقت بسيارتك . »

، ثم جلست الى جانبه • واجابها :

ـ كان هذا هو هولمان •

ـ هولمان ؟

ـ أجل . بعثت به الى القرية لابتياع زجاجة فودكا .

ـ مستقلا السيارة ؟

ـ أجل • لقد كان جد سعيد بقيادته للسيارة بعد هذه الفترة من الحرمان الطويل • وما أظنه الا متجاوزا بها حدود ما سألته اياه • ان بها من الوقود ما يكفي لان يتوجه بها الى زيورخ .

ـ ماذا تقول ؟ وكيف ينطلق بسيارة مكشوفة ؟ أو نسيت أنه مريض ؟

ـ كلا ، لم أنس • انني أعتقد أن هذا سيرفع من روحه المعنوية •

ـ واذا ما أصيب بنزلة برد ؟

ـ انه متدثر بثياب ثقيلة •

ـ أو لا تدري ماذا تعني النكسة له ؟ ان مجرد تعرض اي منا لنزلة برد قد تكون فيها نهايته .

فرمقها كلير فابت بنظرة فاحصة . وبعد أن ملأ عينيه من جمالها ، انبرى قائلا :

« ولماذا لا تطبقين هذه المبادىء على نفسك قبل أن

تنصحي بها غيرك • اما كان ينبغي لك أن تتذكري هذه الارشادات ، حينما كنت ترتدين ثوبا خفيفا للسهرة وحذاء من الساتان ، في سهرة فندق بالاس ، وتغادرين فراشك مخالفة بذلك أوامر الاطباء • ان كل ممنوع مرغوب ، مهما كانت العواقب • »

وبعد ان اطرق قليلا ، رفع رأسه مستطردا :

ـ انك ستجدين فيه الليلة رجلا آخر •

ـ انه سيكون الليلة في فراشه يعاني من آثار الحمى •

ـ لا أعتقد أن الامر سيصل به الى هذا الحد • ومع ذلك أصبح رجلا عاجزا ، وهو لم يزل بعد في مقتبل العمر • ان الحالة النفسية بالنسبة للمريض من الاهمية بمكان •

وادارت ليليان رأسها ناحيته في حركة حادة ، وكأنه قد صفعها بقوة • أو لان هولمان مريض فهو في نظره من العاجزين ؟ هذا الاحمق الغر المأفون او هذا هو رأيه

« ان الحمى البسيطة هنا قد تنقلب الى التهاب رئوي حاد • غير انني لا أعتقد أن هذا يعنيك في كثير أو قليل • ان كل ما ستقوله حينئذ هو أن هولمان كان سعيد الحظ بأن قضى نحبه بعد أن أشبع رغبته في الجلوس الى عجلة قيادة سيارة سباق • »

وبعد ان انتهت من قولها هذا ، شعرت بالاسف لما صدر منها • وكانت لا تدري سببا لما استبد بها من غضب •

وعقب كلير فابت على ماسمعه منها باسما :

ـ ان لك ذاكرة واعية • فلتهدئي من روعك • انه لن يستطيع الانطلاق بها بالسرعة المعروفة عن سيارات السباق ، في هذه المنحنيات المكسوة بالجليد •

وطوقها بذراعه • ولاذت بالصمت ، جالسة في

سكون ، تستمع الى صدى صوت محرك السيارة الذى تردده جنبات الوادي . ثم التفتت اليه قائلة :

ـ هل كنت تفعل ذلك لو كنت فى مكانه ؟

ـ لست أدرى . ان المرء لا يستطيع أن يحكم على الامور حكما صحيحا ، طالما لم يتعرض لتجاربها .. قد أسلك مسلكه مدفوعا بالرغبة فى التعلق بأهداب الحياة . وقد لا أسلك هذا المسلك ، مستكينا لحكم القدر ، متذرعا بالصبر على الزمن . ان الانسان لا يدرى من أمر نفسه شيئا ، مادام بعيدا عن التجربة نفسها .

وعاد صوت محرك السيارة ليقترب ثانية . فأردف كلير فايت قائلا :

« انه يعود أدراجه . »

ـ أجل . وهل ساءك منه أن يسرع بالعودة ؟

ـ كلا . ان كل ماكنت أريده هو ان أتيح له فرصة قيادة السيارة ، لأرفع من حالته المعنوية كما سبق أن قلت لك .

ورأت ليليان انه من الخير لها الا ترى هولمان عند عودته . فنهضت مسرعة وهى تقول :

ـ يجب ان أدخل قبل أن تكتشف رئيسة المرضات غيابي . متى تعتزم القيام بجولة بالسيارة ؟

ـ فى اي وقت تشائين .

● ● ●

كان اليوم يوم أحد ، وكانت أيام الاحاد بالمصحة فى نظر ليليان ، أشد وطأة من بقية الايام .

وهبطت ليليان الدرج الى قاعة الطعام لتناول طعام العشاء ، متحدية جميع الاوامر ، بعد أن تناولت كأسين

من الفودكا فى غرفتها . وحرصت على ارتداء أحسن ثيابها . ان العناية بالملبس كثيرا ما يكون لها أثرها فى حالة الانسان النفسية . غير أنها على الرغم من محاولتها هذه ، لم تستطع أن تتخلص مما كانت تشعر به من انقباض نفسي ، لم تدرك له سببا ، قبل أن تخطو الى قاعة الطعام .

وأخيرا أدركت السبب فيما اعتراها من انقباض . فقد كانت القاعة غاصة بالنزلاء ، والى مائدة فى الوسط ، كانت تجلس ايفاموزر ، وحولها ستة من الاصدقاء . لقد كانت هذه الامسية هى الاخيرة لها بالمصحة ، بعد رحيلها فى اليوم التالى .

وأرادت ليليان ان تقفل راجعة لاول وهلة . ثم وقع نظرها على هولمان جالسا بمفرده الى مائدة قريبة من مائدة الامريكيين الثلاثة ، الذين كانوا يترقبون وفاة مانويلا . ودعاها هولمان الجلوس . ثم بادرها قائلا :

ـ لقد قمت اليوم بقيادة سيارة كلير فايت . هل علمت بذلك ؟

ـ وهل علم بهذا سواى ؟

ـ من تعنين ؟

ـ رئيسة المرضات ؟ أو مدير المصحة ؟

ـ كلا . وماذا يعنيني علمهم بذلك فقد شعرت بمالم أشعر به منذ عام مضى .

ـ أرى أن الجميع الليلة فى حالة معنوية مرتفعة . ماذا ترى فيما يدور من حولك ؟

وأومأت برأسها فى اتجاه ايفاموزر ، التى كانت تجلس بين أصدقائها الحاسدين لها ، على الرغم مما يحيطونها به من رعاية وعطف . وسألت ليليان ، هولمان :

ـ كلا . انه مشغول بزيارة غيرمتوقعة هذا المساء . ومهما يكن من امر ، فلا يوجد ما يضطره الى الحضور كل مساء . ان المصحة ليست بالمكان المرغوب فيه الى هذا الحد .

ـ ولماذا لم يرحل بعد ؟

ـ انه راحل فعلا ، بعد بضعة أيام . يوم الاربعاء أو الخميس .

ـ من هذا الاسبوع ؟

ـ أجل . أعتقد أنه سيرحل ويصطحب معه ضيفه .

ولم تعقب ليليان بشيء . وكانت لا تعرف ما اذا كان هولمان قد افضى اليها بهذه المعلومات عن عمد من عدمه وآثرت الا تسترسل في الاستفسار منه عما كانت ترغب فيه من مزيد . وقالت له أخيرا :

ـ ألا يوجد معك قليل من الخمر ؟

ـ ولا قطرة . لقد أعطيت ما تبقى لدى من الجين الى شارل تاي ، بعد ظهر اليوم .

ـ ألم تبق زجاجة من الفودكا صباح اليوم ؟

ـ أعطيتها لدولوريس بالمر .

ـ لماذا ؟ هل قررت أن تصبح مريضا نموذجيا ؟

ـ بعض الشيء .

ـ ولكنك كنت صباح اليوم أبعد ما تكون عن ذلك .

ـ لقد صار صباح اليوم في عداد الماضي .

ـ ترى مع من سأخرج ليلا بعد رحيل كلير فايت ؟

ـ غيره كثيرون . ومهما يكن من أمر ، فان كلير فايت لم يزل هنا . ألن يحضر بوريس الليلة ؟

ـ كلا . وبوريس ليس بالرجل الذي يصلح للخروج معه ليلا . أنت تعرف شدة تزمته . يبدو أنه لا معدى لى

الليلة عن العودة الى فراشي .

ـ ماذا بك ؟ هل من جديد ؟

ـ انه الدائرة الخبيثة من السأم والضجر . ترى متى تنتشلنا السماء منها ؟

● ● ●

استكملت الممرضة دورة مرورها الليلي . وكانت ليليان مضطجعة في فراشها تحاول القراءة عبثا . وبعد قليل ألقت بالكتاب جانبا . وعادت مرة أخرى لتواجه الليل بطوله ـ الليل بظلامه الحالك ، وسكونه المخيم ، ومخاوفه المجسمة . ثم يطوف بها ذهنها المكدود ، الى أن يستقر أخيرا على ذاتها . على هذا الكائن البشري . ليليان دنكرك ، التى تعلم أن نصيبه من الدنيا هو أقصر حياة .

وسمعت طرقا على الباب . وكان الطارق شارل تاي الذى جاء يقول لها هامسا :

« ان الميدان خال .. هلم بنا الى مأدبة دولوريس لمناسبة رحيل ايقاموزر . »

ـ وما هو الداعي ؟ ولماذا لا ترحل في سكون ؟

ـ اننا نحن الذين خلقنا من رحيلها مناسبة . اننا نتلمس الاسباب .

ـ لقد حصلتم على بغيتكم في قاعة الطعام .

ـ لم تكن هذه المأدبة سوى ذر للرماد في عين رئيسة الممرضات . هيا بنا . ولا تستسلمي لافكار الليل السوداء .

ـ ليست بي رغبة للاشتراك في حفل ما .

ـ هيا ، هيا . ان الوحدة قاتلة . ستجدين بالحفل

الكثير من النزلاء . ان العجز لم يقعد بعضهم عن الاشتراك فى وداع الانسة موزر ، لا لمجرد تكريمها ، بل لانه وجدها فرصة سانحة للتسرية عن نفسه ، وابعاد ما ينوء به مما أثقل كاهله من قسوة القدر . فلتنسى ما يقض مضجعك ، ولتقبلى على الحياة برهة من الزمن .

وكانت دولوريس بالمر تقيم بطابق اسفل الطابق الذى به غرفة ليليان . وكانت تقيم بجناح مكون من غرفة نوم ، وغرفة جلوس ، وغرفة استحمام .

واستقبلتها دولوريس مرحبة ، وهى تقول :

« لدينا زجاجتان من الفودكا . أين تريدين أن تتخذى لك مقعدا ؟ »

وتلفتت ليليان فيما حولها . ولم يكن الحشد غير مألوف لديها . وكان الحضور أشبه بالاطفال الذين يختلسون لحظات لهوهم فى ساعة متأخرة من الليل . وكانت دولوريس بالمر ترتدى ثوبا صينيا طويلا . وكان جمالها من هذا الجمال الحزين ، الذى ما كانت لتأبه له أو تدركه تيها وزهوا . فقد كانت ممن يتركن أنفسهن على سجيتها ، لا يعنيها من دنياها سوى أن تعيش فى نعيم من الترف والاستمتاع .

وكانت ايفاموزر تجلس بجوار النافذة ، تتطلع منها . وبدا عليها أنها قلقة واجمة . وانبرت ماريا سافينى تقول لليليان :

« انها حزينة . هل تصدقين هذا ؟ »

ـ وما هو السبب ؟

ـ سليها عن السبب . انه أبعد ما يكون عن الخاطر . أنها تقول ان هذه المصحة أصبحت بمثابة دارها .

فانبرت ايفاموزر تقول منتحبة : « أجل ، انها دارى .

لقد كنت جد سعيدة هنا . لقد أصبح لى أصدقاء . انني راحلة الى حيث لا اعرف أحدا . »

ورأن الصمت على الجميع . وأخيرا انبرى شارل ناى معقبا : « ايفا .. يمكنك عدم مغادرة المصحة اذا ما أردت . ما أحسب أن أحدا سيعارضك فى هذا . »

ـ بل يوجد من سيعترض ! انه والدى ! ان اقامتى هنا تكلفه كثيرا . وهو يريد منى أن أجد لى عملا . انني لم أعد أصلح لعمل ما . لقد أنستنى اقامتى هنا ما كنت أعرفه . ثم من ذا الذى يلحق بخدمته فتاة كانت نزيلة المصحات؟

واقبلت دولوريس بالمر تحمل الى ليليان كاسا من الفودكا ، قائلة وهى ترمق ايفاموزر . بنظرة امتعاض :

ـ هذه المرأة ، لا تستطيع أن تسيطر على أعصابها !

ـ سأنصرف . فلا قبل لى بهذا المشهد .

فاعترض شارل ناى على ما سمع منها قائلا :

ـ كلا ، لا تنصرفي . اننا فى أمس الحاجة للشموع المضيئة من طرازك وطراز دولوريس . انكما بمثابة النور المشع في ظلام حياتنا . فلتسمعينا شيئا من انشادك !

ـ أى نشيد ؟ نشيد الاطفال الذين لن يولدو !

ـ بل نشيد السحب التى ستنقشع الى غير رجعة ، أو ان شئت ، نشيد المبعدين الى الجبال . اننا نريد أن ننال نصيبا من اللهو والعبث . هذا خير من البكاء .

فعقبت دولوريس على هذا بقولها : « لقد أسرف شارل فى الشراب . فلنسمع الاسطوانات الامريكية الحديثة » .

ونهضت ليليان عن مقعدها . وما أن فعلت ذلك ، حتى فتح الباب لينفرج عن رئيسة الممرضات التى وقفت به تصيح فى غضب :

« هذا هو ما توقعته ! سجائر ! وخمر ! وعبث ولهو ومجون ! ان كلا منكم كان يجب أن يغط في نومه الآن ٠ »

وانبرى أحد المرضى قائلا :

« بل كان من الواجب أن يقضي من هو على شاكلتي نحبه منذ أعوام ٠ اننا نستعير الزمن تلك الأيام التي نحياها ٠ ان من كان هذا هو شأنه ، يضع لنفسه قواعد خاصة ٠ »

– هكذا ؟ هل لي أن أعرف شيئا عن ماهية هذه القواعد ؟

– أن نعيش ليلمنا بالعرض ، ونستمتع بكل دقيقة فيها ، لأنها كل ما تبقى لنا من دنيانا ٠ أما كيف يكون هذا ، فانه متروك لرغبة كل حسبما يشتهي ويهوى ٠

– من واجبي أن أسألك الذهاب فورا الى فراشك ٠ من الذي ساعدك على الحضور الى هنا ؟

– حسن ادراكي وعمق تفكيري ٠

وأعان الرجل بعضهم على الجلوس في مقعده المتحرك ، وخطت ليليان متطوعة بدفع مقعده وما أن وصلت به الى باب الغرفة ، حتى سمعت رئيسة الممرضات تؤنبها قائلة :

– اذن ، فأنت من أتى به الى هنا !

وواصلت ليليان دفعها للمقعد المتحرك الى الردهة ٠ وتبعها شارل ناي والآخرون ، كأطفال كشف أمرهم ٠

وبعد نصف ساعة ، زارت ايفاموزر ليليان بغرفتها . وسألتها :

« هل حملوا فراشي الى غرفتك ؟

– كلا ٠

– ترى أين يمكن أن أجده ٠٠ ؟ لقد أفرغوا غرفتي مما

كان بها ، بما في ذلك جميع ثيابي ٠ ترى أين توجد حاجياتي ؟

وكان اخفاء حاجيات ، المسرحين ، من المصحة دعابة يلجأ اليها النزلاء ، في آخر ليلة له بالمصحة ٠

وأردفت ايفاموزر قائلة : « انها لدعابة سخيفة ! »

وشعرت ليليان بأنها يجب أن تفعل شيئا ، فقالت لها :

– توجهي الى البهو ، واختبئي بجوار باب المصعد الى أن تشاهدي شارل ناي خارجا منه ٠ ولتذهبي فورا الى غرفته ٠ واتصلي بي تليفونيا من هناك ٠ وقولي أنك ستتشبثين بثيابه ما لم ترد لك حاجياتك ٠٠ هل فهمت ؟

– أجل ٠ ولكن ٠

– انني واثقة من أن شارل ناي يعرف مكانها ٠

واتصلت ليليان تليفونيا بشارل ناي ، وأومأت لايفاموزر أن تنصرف ٠ ثم دعته لزيارتها بغرفتها ٠

وأقبل شارل بعد بضع دقائق ٠ واستفسرت منه ليليان عما فعلته بهم رئيسة الممرضات ٠ فأجابها :

– لقد حلت الأزمة حلا موفقا بفضل كياسة دولوريس ٠

– انها خير من يتولى مثل هذه الأمور ٠ وقد انصرفت الرئيسة راضية مقتنعة ٠

ودق جرس التليفون ٠ وكان صوت ايفاموزر مرتفعا بحيث سمع شارل كل كلمة صدرت عنها ٠ ورددت ليليان على مسامعه ما هددت به وتوعدت ايفاموزر ٠

ومدت له يدها بسماعة التليفون ، سائلة اياه أن يهدىء من ثورة ايفا ، واتجهت الى النافذة تطل منها ٠

وتطلعت بعينيها الى فندق بالاس ، الذي كانت نوافذه لم تزل مضاءة ٠ ان هذا الضوء لن يعود ينبعث من تلك النوافذ بعد أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ٠ اذ سيعود

السياح من حيث أتوا ، ويخلفون وراءهم الفراغ والملل .

وسمعت صوت اعادة سماعة التليفون الى مكانها ، وشارل يقول معقبا : « هذه المعتوهة ! »

وانصرف لا يلوى على شيء .

أسدلت ليليان ستائر غرفتها ، وراحت تبحث عن العقار المنوم . تستعين به على مغالبة ما تخشاه من أرق الليل الطويل . وخيل اليها أنها سمعت صوت سيارة كلير غابت . أن في وسعه أن ينقذها من عذاب هذا الليل الطويل . غير أنها لا تستطيع أن تتصل به تليفونيا . لقد قال هومان أن لديه زائرا . من عساه أن يكون ؟ أتراه احدى نساء باريس أو ميلانو أو مونت كارلو ! الى الجحيم بكلير غابت ! ان هي الا بضعة أيام يرحل بعدها . ليس أمامها سوى الرضوخ لما قدر عليها ، وليس عليها الا أن تسلم بالامر الواقع . أو ليس هذا ما نصحها به بوريس ! غير أن هذا الخضوع والاستسلام يعنى لديها الضياع . ان الايام تمضى والاعوام تسرع . ثم استرسلت في البكاء .. الذى لا يغير من الامر شيئا وانهمرت عبراتها أسى واشفاقا .

● ● ●

الفصل الخامس

كان الشيخ مستلقيا في فراشه ، وكأنه قطعة من أغطيته . وكان وجهه ناحلا ، ذابلا ، وعيناه غائرتين .

كان يدعى ريختر ، في الثمانين من عمره ، قضى عشرين عاما منها بالمصحة . شغل في أول قدومه جناحا من غرفتين ، ثم انتقل الى غرفة بالطابق الاول ، وأخيرا ، وبعد أن اضطرته الى ذلك حالته المالية ، أقام بغرفته الضيقة التى لا تكاد أن تتسع لفراشه والمنضدة الصغيرة بجواره . وقد تمكن الرجل بقوة عزيمته من مغالبة الموت طوال عشرين عاما .

وكانت ليليان جالسة بجوار فراشه . وأشار باصبعه الى رقعة الشطرنج فوق المائدة قائلا :

ـ تأملى هذه أعجبى لهذه الحركة . كان على الرجل أن يدرك أن تحريك الفارس سيمكننى منه . ترى ماذا دهاه ؟ لقد ألفت من رينيه خلاف ما أرى منه الآن . لقد كان من خيرة لاعبى الشطرنج . هل كنت تقيمين هنا ابان الحرب ؟

ـ كلا .

ـ لقد كان حضوره ابان الحرب ، فى عام ١٩٤٤ ، على ما اذكر . وكان قدومه مصدر سرور لى ، اذ كنت أمارس هوايتى هذه عن طريق المراسلة بنادى الشطرنج فى زيورخ ، فلم يكن ثمة من يمارس هذه الهواية من بين نزلاء المصحة ٠

غير أن سعادة ريختر بقدوم رينيه لم تتم . فقد كان رينيه فرنسيا اطلق سراحه من معسكر اعتقال المانى ٠ وما ان علم بأن ريختر المانى الجنسية ، حتى رفض أن يواصل مبارياته معه ٠ ان العداء القوى المتأصل فى النفوس ، لا يتوقف بدخول المصحات ٠

وتمكن السأم من نفس كل منهما . وتبع كل فى فراشه مصرا على موقفه من الاخر ٠ واخيرا وجد أحد الزنوج من نزلاء المصحة حلا لهذه المشكلة ٠

واتصل بكل من ريختر ورينيه ، يقترح عليهما ممارسة هوايتهما عن طريق التليفون ، على أن يكون هو الوسيط بينهما ٠

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بقليل ، قضى الزنجى نحبه ٠ واضطرت الظروف المالية كلا من ريختر ورينيه الى الاقامة كل فى غرفة لا يوجد بها تليفون ٠ وكان رينيه بالطابق الثالث ، وريختر بالطابق الثانى واضطلعت رئيسة الممرضات بمسئولية الوساطة بين الخصمين ، اللذين لم يعرفا شيئا عن وفاة الزنجى ٠ وسار كل شىء على ما يرام ، الى ان استطاع رينيه أن يغادر فراشه ٠ وكان أول ما فعله ، محاولته زيارة صديقه الزنجى ٠ ومن هنا ، اتضح له ما كان خافيا ٠

ولكنه كان قد عرف ، فى نفس الوقت ، ما نزل بأسرة ريختر فى المانيا من ويلات ، نتيجة للغارات الجوية ٠

وخفف هذا من غلواء مشاعره العدائية ، واستأنف مبارياته مع ريختر ٠ غير ان حالة رينيه الصحية اضطرته الى ملازمة الفراش ثانية ، مما استتبع قيام بعض المرضى بدور الوسيط بينهما ٠ وكانت ليليان من بين هؤلاء ٠ ثم كان ان لفظ رينيه أنفاسه الاخيرة منذ ثلاثة أسابيع ٠ واجتمعت كلمة المحيطين بريختر على عدم احاطته علما بوفاة الفرنسى ٠

وكان لرئيسة الممرضات المام بهذه اللعبة ، ورأت ان تقوم مقام رينيه فى الاشارة على الوسطاء بما ينقل من قطع الشطرنج ٠ غير أن ريختر ، الذى لم يكن يعلم بوفاة خصمه ، كان آسفا لما تبينه عن تخلفه فيما كان يحذقه من قبل ٠

• • •

وسأل الرجل ليليان ، التى أتته تحمل الحركة الاخيرة من رئيسة الممرضات : ، الا ترغبين فى تعلم هواية الشطرنج ؟ فى وسعى أن أعلمك اياها فى أقصر وقت ٠ ،

وهزت ليليان رأسها نفيا ٠ ولمحت الاسى فى عينى الرجل الزرقاوين ٠ وعاد يلح عليها الى أن قالت :

ـ اننى لا أهوى الشطرنج ، ولم أوت من الصبر ما يعيننى على ممارسته ٠

ـ ان الشطرنج هو مفتاح الصبر ٠ انه ملاذك حينما لا تستطيعين الى النوم سبيلا ٠ حتى القراءة ، لن تعينك على مغالبة أرق الليل الطويل ٠ لقد لجأت الى شتى الوسائل ٠ ولم أجد سوى وسيلتين ٠ الاولى : ان يشاركك البعض وحدتك ، ولذلك تزوجت ؛ غير ان زوجتى توفيت منذ بضع سنين ٠٠

وسألته : ـ والثانية ؟

ـ حل معضلات الشطرنج .. ان الشطرنج يبعث الراحة في الذهن المكدود ، والاستغراق فيه يبعد عنه شتى الخواطر . أليس هذا هو كل ما نبغي ؟

ـ بلى ، انه كل ما نبغي في مكان مثل هذا . كم قضيت هنا من عمرك ؟

ـ عشرين عاما . انها عمر بأسره .

ـ أجل . حياة رتيبة تكرر الايام فيها نفسها وتتشابه ، بحيث تبدو في نهاية كل عام ، وكأنها يوم واحد ان مثل هذه الفترات من حياة الانسان ، من الظلم ان تعد من عمره . انها قطعة منفصلة تقتطع من حياته ، ويلقى بها بعيدا ، أو هذا على الاقل ما يجب أن يكون ، ولذلك قررت أن أغادر هذه المصحة .

ـ وهل تم لك الشفاء من مرضك ؟

وأدركت انها اندفعت فيما صرحت به . فاستدركت قائلة :

« انني راحلة لفترة قصيرة فقط أعود بعدها لمواصلة العلاج . هل تريد مني أن أحمل لرينيه حركة القطعة التالية ؟ » .

ـ لا جدوى من ذلك . قولي له أن يبدأ من جديد .

ـ فليكن .

● ● ●

واستبد القلق بليليان طوال اليوم ، وبعد الظهر . واغرت احدى الممرضات أن تطلعها على صور الاشعة الاخيرة . واستجابت هذه لها ، معتقدة أن المريضة لن تستطيع أن تتبين شيئا من هذه الصور . غير أن ليليان سألتها :

ـ من يمكن أن أستبقيها معي قليلا

ـ هذا مخالف للأوامر ، ومجرد اطلاعك عليها ضد التعليمات .

ـ ولكن الطبيب يطلعني عليها دائما ، ويقوم بشرح ما فيها . ولقد نسي أن يفعل ذلك في هذه المرة .

ولم تجد الممرضة بدا من الاستجابة لالحاح ليليان . فوضعت الصور فوق أحد المقاعد قائلة :

ـ سأعود بعد بضع دقائق لاستعادتها . انني ذاهبة الى الغرفة رقم ٢٦ . لقد رحلت شاغلتها .

ـ رحلت

ـ أجل ، منذ ساعة .

ـ من عساها أن تكون

ـ فتاة من بوجوتا ، بأمريكا الجنوبية .

ـ مانويلا

ـ أجل . لقد قضت في هدوء .. كانت وفاتها متوقعة .

ـ ولماذا تقولين رحلت ؟ فيم هذا التلاعب بالالفاظ ؟ . انها لم ترحل ! لقد ماتت ، وانتهى أمرها ! رحلت ! يالتورية وذات التحرج في هذه المصحة .

ـ أجل يا سيدي أجل .. ماتت .

ـ يمكنك أن تنصرفي . وحينما تعودين ستجدين صور الاشعة في انتظارك

ـ حسنا .

● ● ●

وأسرعت ليليان الى النافذة بصور الاشعة تمعن النظر فيها ، ولكنها لم تستطع أن تتبين منها شيئا . وكان مدير

المستشفى يؤشر على بعض مواضيع من الصور السابقة بالمداد الأحمر غير أنه لم يفعل شيئا من هذا القبيل فى هذه الصور .

ان هذه الصور تعني لديها الحياة أو الموت ـ انها تعني الصحة أو المرض .

وراحت تتفرس فيها محاولة ان تستشف منها شيئا . وتبينت ان ثمة بقعا أكثر سوادا مما يحيط بها ، وانها أكثر اتساعا مما كانت عليه في صور الأشعة السابقة. وعادت لتضع الصور فوق المنضدة، واتجهت الى المرآة تتفرس في وجهها . هذا الوجه الذي يبدو وكأنه غريب عنها .. انها لتكاد أن تنكره بنحوله وهالاته السوداء .

وسمعت صوت الممرضة التى أقبلت قائلة : ـ ماذا

ـ كما ترين ! أتأمل وجهى فى المرآة . لقد فقدت من وزنى ثلاثة أرطال فى الشهرين الأخيرين .

ـ انك جد قلقة . ويجب أن تتناولى من الطعام كميات أكثر . يجب ان تهدأى بالا وتؤمنى بقرب شفائك .

فاستدارت ليليان تواجهها ثائرة ، « لماذا تصرون هنا على معاملتنا معاملة الأطفال ؟ أو تعتقدون اننا نصدق كل ما تقولون اليك هذه الصور .. تأمليها جيدا ! وانك لتعرفين خيرا منى ماذا تعنى .. »

ـ وهل استطعت أن تتبيني منها شيئا

ـ أجل .. لقد أدركت منها كل شيء . ان حالتى لم تعد سرا مستغلقا . لقد صارحنى الطبيب بأن حالتى الصحية لاتتحسن وانها تتدهور .. لماذا تحاولون التمويه على المرضى

ـ لان الكثيرين منهم لا يحتملون مواجهة الحقائق .

ـ ولكننى ممن يشعرون بالقدرة على ذلك .

ـ هذا واضح ، بعد اطلاعك على السر واكتشافك لما تضمنته صور الأشعة . هونى عليك واعقدى العزم على اتباع أوامر الأطباء وارشاداتهم .

ـ سأعمل بمشورتك من الآن فصاعدا .

ـ وبهذا تستعيدين صحتك وما فقد من وزنك .

وكانت ليليان تود فى قرارة نفسها ، أن لو سمعت من الممرضة ما يكذب حدسها .

وسمعت طرقا على الباب ، أعقبه دخول هولدان قائلا :

ـ سيسافر كلير فايت غدا ، والليلة من الليالى القمرية . ماذا ترين فى قضاء الليلة معا ؟

ـ لست أدرى .

ـ ان الليلة هى الأخيرة له بيننا .

ـ متى سيرحل ؟

ـ بعد ظهر الغد .

ـ وهل سيسافر بمفرده ؟

ـ أجل . هل توافقين على اقتراحى ؟

ولاذت ليليان بالصمت . ان رأسها يضطرب بالكثير من الفكر والخواطر . وسمعته يستطرد قائلا :

ـ انها ليلة وداع يجب أن تمضيها معا .. ان المناسبات لدينا قليلة .

وانصرف هولدان وتركها لخواطرها .

هذا الغد ـ لماذا يفترق عن غيره ؟ فى مساء هذا الغد سيكون كلير فايت قد رحل، وتعود الحياة المملة الى سابق عهدها . كان بيت الانزلاق مفتوحا اثناء الشتاء ، وكانت فيه فرقة موسيقية أعدها فندق بالاس . واقبل الرواد فى ثياب السهرة ، وكانت دورلوريس ترتدى ثوبا

اسباني الطراز تتدلى منه شرائط الدانتلا ، اما ليليان دانكرك فكانت تلبس جاكتتها المصنوعة من الفراء .

وكانت ليليان بادية الانفعال ، تصطخب الاثارة في أعماقها .. وعند قمة التل تهدر العاصفة . ومضت ليليان تتطلع الى القمر الذي يطل بوجهه من بين السحاب ، ثم يعود ليختفي ، وسألها كلير فايت عما تفضله من مشروب في هذه الليلة . فاجابته بانها تفضل كأسا من النبيذ . وبعد أن أحضر الساقي الكؤوس ، بادرته بسؤالها :

ـ متى ستسافر غدا ؟

ـ قبل حلول الظلام .

ـ الى أين ؟

ـ الى باريس ؟ هل انت راحلة معي ؟

ـ أجل .

فضحك كلير فايت . اذ حسبها تمزح وعقب على ذلك قائلا :

ـ حسنا . غير أنك يجب الا تكثري من حقائبك . ان سيارتي لا تتسع للكثير منها .

ـ لن أحمل معي سوى حقيبة واحدة . أما الباقي فيمكن ارساله الى عنواني . أين ستتوقف بعد رحلتنا ؟

ـ سأحرص على الخروج من منطقة الجليد التي لا تحبينها ، ثم نواصل طريقنا الى تيشينو . والى بحيرة ماجيور ، حيث نجد الجو ربيعا .

ـ وبعد ؟

ـ الى جنيف .

ـ ومن ثم ؟

ـ الى باريس .

ـ الا يمكن أن نتجه رأسا الى باريس ؟

ـ حينئذ ، يكون علينا ان نبدأ سفرنا الليلة . لان المسافة أطول من أن تقطع في يوم واحد .

ـ وهل يمكنك أن تقطع المسافة من بحيرة ماجيور الى باريس في يوم واحد ؟

والى هذه المرحلة من الحديث ، لم يكن كلير فايت ليحمل الامر محمل الجد . ولكن هذه الاسئلة تعني أنها جادة فيما تقول فجعل يتفرس فيها مستطلعا ، ثم قال :

ـ ان قيادة يوم بطوله ، يمكن ان نبلغ بها مقصدنا . ولـكن لم العجلة ؟ الا تريدين أن تمتعي ناظريك بحقول النرجس المحيطة بجنيف ؟ انها مما يحرص الجميع على مشاهدتها .

ـ يمكنني القاء نظرة عليها عبر الطريق .

واقبل هولان يهمس قائلا :

ـ رباه ! انه مدير المصحة .

ـ أين هو ؟

ـ عند الباب .. من كان يتوقع هذا ؟ ماذا نحن فاعلون ؟

ـ لا شيء .

ـ الا يستحسن ان نتسلل خارجا ؟

ـ كلا .

وكان بين الموجودين البعض من نزلاء المصحة . وساد بينهم جميعا الاضطراب , واستبدت بهم الحيرة . وجلس من جلس منهم ، واستبدل آخرون مقاعدهم بمقاعد اكثر أمانا . وتأمل كليرفايت ليليان مبتسما ، وكأنه يستفسر منها عما اذا كانت تريد ان تحذو حذو غيرها وتستبدل مقعدها بآخر أحسن وضعا حتى يكون متواريا ولكنها هزت رأسها نفيا . وتطلعت ليليان بعينيها صوب مدير

الصحة تتأمل وجهه الشاحب وعينيه الباهتتين وهو يجول بهما بين الموائد محاولا أن ينفذ بنظراته خلال زحام القاعة .

ونهضوا جميعا مغادرين القاعة ، لمشاهدة هواة الانزلاق على الجليد في هذه الليلة القمرية الجميلة . ومشت ليليان الى جانب كلير فايت ، بخطوات متئدة ، متجاهلة وجود مدير المصحة . ووقفت من مكانها تشاهد هواة الانزلاق ، وقد حملوا مشاعلهم في أيديهم .

وسألت ليليان كلير فايت : « متى سنرحل غدا ؟! »

ـ متى تشائين في أية ساعة تفضلين ؟ قبل حلول الظلام أو اذا أردت بعده . الامر متروك لك .

ـ أن الامر عندى سيان . وسأكون على اتم استعداد في الساعة التي تحددها .

ـ حوالى الساعة الرابعة مثلا .

ـ فليكن . ستجدني في انتظارك . ولا يشغلك أمرى . فما عليك الا أن تبلغ بي باريس ، ثم تتركني أمضى ..

ـ تمضين حيثما شئت ، على غير هدى .

ـ أجل .. هو ما ذكرت .

ـ لك ما تشائين .

وشعرت بأنها تهتز من قمة رأسها الى أخمص قدميها . وراحت تمعن النظر في وجه كلير فايت .. انه لا يثقل عليها بأسئلته . ولست مضطرة الى تبرير شيء من تصرفاتي . انه لا يبالي بما عقدت العزم على القيام به ، ويأخذ كلامي على علاته . انه لا يثير زوبعة حول مرضى ، ولا يجعل منه مشكلة مستعصية الحل . وشعرت لاول مرة منذ مرضها ، بأنها تخلصت من عبء ثقيل كانت تنوء به . وقد بعث هذا الخاطر في نفسها الشعور

بالسعادة بصورة لم تألفها من قبل ، وكأنها اجتازت حدود منطقة كانت محرمة عليها . وأنها لترى الحياة ممتدة أمامها ، بكل ما فيها من بهاء ورونق . وأنها لتقف الان عند نقطة البداية ، وقد حملت مشعل الوجود الحق ، في طريقها الى ما يضطرب فيه الاصحاء من حياة عادية . أن أقصى ما يصبو اليه الانسان ، هو أن يتخير ميتته ، حتى لا يدهمه الموت كما يدهم فأرا ويباغته .

الفصل السادس

وجدها فولكوف ، فى صباح اليوم التالى ، منهمكة فى اعداد حقائبها .

« انك تعدين حقائبك ؟ وفى ساعة مبكرة ؟ » .

— أجل . كما ترى .

— ولماذا ؟ انى لاأشفق عليك من هذا العنف .

وذلك لانه كان قد رآها تفعل هذا من قبل غير مرة ، ثم تعود لتعدل عن رايها ، بعد أن تهدأ نفسا .

وسمعها تقول له فى لهجة قاطعة :

— بوريس، استمع الى . . قلت لك اننى جادة هذه المرة .

وراح يتابع ما تودعه حقائبها من حاجيات . فرددت قولها :

« اننى راحلة فعلا . أراك لا تصدقنى ! » .

فتوما برأسه قائلا : « أجل . أجل . انك راحلة غدا . وبعد الغد ستعيدين حاجياتك الى مكانها ، وأقوم بمساعدتك فى افراغ حقائبك . فيم كل هذا العناء ؟ والى متى عدم الاستقرار ؟ ! »

— بوريس ، استمع الى . . قلت لك اننى جادة هذه المرة . اننى راحلة الى غير رجعة .

— غدا ؟

— كلا اليوم . وفى رفقة كلير فايت .

— فى رفقة كلير فايت ؟

— أجل . . سأرحل معه فقط ، لقد انتهزت فرصة رحيله وسألته أن يصحبنى معه الى حيث يمضى كل منا فى سبيله . هذا ما اريد أن تفهمه . اننى راحلة لمجرد رغبتى فى ذلك ، لا لسبب آخر . لقد ضقت ذرعا بمقامى هنا . ضقت ذرعا بكل شىء .

— لن أمكنك من الرحيل .

— بل ستدعنى افعل ما أريد . لقد حاولت أن أكتب لك موضحة الامر ، ولكننى عجزت عن التعبير عما تحتمل به نفسى .

ان هذه الحقائب المعدة للرحيل ، بمثابة السهام القاتلة المصوبة الى قلبه . ان هذه الثياب وتلك الاحذية لم تعد مصدر سحر وجاذبية ، كما كان يراها من قبل . انها هى الان ، بعد أن أعدت للرحيل ، الا مصدر الم لغياب من يحب ورحيلها المفاجىء عنه . وعاد يردد : « لن ترحلى ! » .

— كنت اخشى هذا الموقف . ولذلك كنت أزمع الرحيل دون أن أكاشفك بعزمى . أرجو الا تزيد الموقف صعوبة ، وأن تجنبنى مرارة الشعور به !

هذا هو ما يصدر عنهن دائما . وهذا هو ما يرددنه فى مثل هذه المواقف وهن الخالقات لمثل هذه المواقف ، المتسببات فى وجودها . أجنبها مرارة الشعور بالموقف ، وهى التى قررت أن تمزق قلبى بقرار رحيلها . الم يدر

بخلدها ماذا سيكون من شأني وهي تسألني أن أرفق بها ؟

يا لأنانية المرأة !

ــ انك راحلة مع كلير فايت ؟

ــ سأستقل معه سيارته · هذا هو كل ما في الامر · وسنفترق في باريس ، حيث أقيم مع عم لي ، وهذا العم هو الوصي على ما آل الي من مال · أما كلير فايت ، فسيواصل طريقه الى حيث يريد · أرجوك أن تفهمني جيدا ·

ــ وماذا تريدين مني أن أفهم ؟ حسبي من كل هذا رحيلك · وماذا يعنيني من الامر بعد ذلك !

ــ هل تريد مني أن أقيم معك ؟

ــ أريد منك أن تقيمي هنا ·· ان الوضع يختلف ·

وردد في ذهنه : « لقد كذبت فيما قلت · بديهي أنني لا أريد منها سوى أن تقيم معي · انها كل حياتي ، وكل ما تبقى لي منها · أن كوكب الارض قد تضاءل وأصبح في نظري هذه القرية النائية بين مقام الجبال العالية ·· تلك هي دنياي وهي كل ما أبغيه من دنياي هذه »

وأردف قائلا ، « لست أريد منك أن تلقي بنفسك الى التهلكة ، وتبددي حياتك كما يبدد السفيه أمواله » .

ــ ان هي الا ألفاظ ترددها · بوريس ! ما الذي يؤثره السجين ·· ان يعيش حرا لعام يفارق الحياة بعده أو قضاء عدة أعوام في السجن ، في حياة راكدة كالماء الآسن ــ ترى ماذا يفضل ؟

ــ ولكنك لست في سجن . انك تصورين لنفسك الحياة خارج هذه القرية ، بصورة مجسمة تخدعين نفسك بها .

ــ اني ادرك ما تعنيه بقولك هذا · وأصارحك بأني لا أعرف شيئا عن هذه الحياة · انني لم أعرف من الحياة سوى ما يسرته لي فترة الحرب ــ لم أعرف سوى البؤس والخيانة ، وما لا يرضي . غير انني واثقة من ان مارأيت ليس هو كل ما في الحياة · أن ثمة جانبا آخر لهذه الحياة الطليقة الحرة · بوريس دعنا من هذا الحديث ·· انني لم أعد أدري من أمر نفسي شيئا . أرجوك الا تثير مني المواجع والالام .

فليرحل كلير فايت بمفرده · وبعد بضعة أيام ستدركين مدى ما كنت مقبلة على ارتكابه من خطأ ·

ــ بوريس ! لا شأن لكلير فايت برحيلي . ليست المسألة مسألة رحيل رجل آخر .

ولم يعقب بشيء . لقد أدرك انه تنكب طريق الصواب في أسلوب حديثه معها · أن شدة تعلق الرجل بالمرأة يفقده اياها . أن المرأة لا تحب من يمارضها ولا يداهنها حتى ولو ارتكبت خطأ ·

وقال لها أخيرا : ــ اذا لم يكن الامر كذلك فلماذا لم تسأليني أن أذهب معك ؟

ــ أنت ؟

وردد في خاطره لقد مدحت لاخطيء ثانية ! لماذا أفرض نفسي عليها ؟ انها تريد أن تهرب من المرض ــ فماذا يضطرها الى أن تصطحب مريضا معها ؟ انني آخر من ترغب في السفر معه .

وسمعها تستطرد قائلة : ــ أنني لا أريد أن أحمل معي ما يذكرني بهذا المكان · انني أحبك ولكنني لا أريد ان ··

ــ تريدين أن تنسى كل شيء ؟

ــ لست أدري · أتوسل اليك الا تضاعف من عذابي ·

ولاذ بالصمت . فقد كان يدرك أنه من الخير له ألا يعقب بشيء . غير أنه كان يرى أنه من الأهمية بمكان أن يوضح لها أنه لم يتبق الكثير من حياة كل منهما ، وأن هذه الأيام التي تبكي منها ، ستبكي عليها فيما بعد . ولكنه كان يدرك في الوقت نفسه ، أن كل ما يقوله سيؤول تأويلا عاطفيا أبعد ما يكون عن أن ينفذ الى قلبها ناهيك بعقلها .

لقد فات الأوان . وأسدل هذا الحاجز الزجاجي بينهما ، في لحظة لم تكن في الحسبان بحيث أصبح كل منهما يرى الآخر ولا يفهمه . وإن تبادلا حديثا ، لم ينفذ من آذانهما الى العقل . وكأن كلا منهما ينطق بلغة أجنبية عن الآخر . لم يعد ثمة مجال لإصلاح ما فسد . لقد ازدادت الهوة بينهما عمقا واتساعا ، وأصبح من المتعذر اجتيازها .

ـ وداعا يا ليليان .

ـ أرجو أن تغفر لي .

ـ لا يوجد في الحب ما يغتفر .

● ● ●

لم يكن لديها متسع من الوقت للتفكير . وأقبلت احدى الممرضات تحمل اليها نبأ قدوم مدير المصحة لزيارتها .

وأقبل المدير تفوح منه رائحة مواد التطهير قائلا في لهجة جافة :

« لقد رأيتك الليلة الماضية بالفندق » .

وأومأت ليليان برأسها ايجابا .

ـ تعرفين أنه من المفروض ألا تغادري غرفتك ليلا .

ـ أجل ، أعرف ذلك .

ـ يبدو لي أنك لا تبالين بأوامر الأطباء . وأجدني مرغما على أن أطلب منك مغادرة المصحة ، لعلك أن تجدي مكانا يتفق مع رغباتك . ولقد تحدثت في ذلك مع رئيسة الممرضات التي علمت منها أنها سبق أن أنذرتك وحذرتك من سوء مغبة تصرفاتك . ان في مسلكك المستهتر ما يسيء الى سمعة المصحة . ونحن لا يمكن أن نتسامح مع من ..

فقاطعته ليليان قائلة : « انني أدرك ما تعني . ولقد عقدت العزم على مغادرة المصحة بعد ظهر اليوم » .

وتأملها مدير المصحة دهشا . وأخيرا قال لها :

ـ لا حاجة بك للعجلة . لديك متسع من الوقت ، الى أن توفقي الى مكان مناسب . أم لعلك وجدت هذا المكان فعلا .

ـ كلا

ـ اذن . فقيم هذا العناد القاتل ، وهذا الإصرار على عدم مراعاة صحتك ؟

ـ ان صحتي لم تتحسن على الرغم من اتباعي كل الإرشادات .

ـ ولكن هذا لا يبرر توقفك عن مواصلة العلاج . على العكس ، ان في ذلك ما يحدو بك الى الالتزام بتلك الأوامر والإرشادات . هذا هو العبث المدمر والاستهتار القاتل . هلا أقلعت عما أنت سادرة فيه من غي .

ـ انه من الخير لي أن أذهب .

ولم يكن حديث مدير المصحة معها ليزيدها رغبة . لقد وضع النقط الناقصــة فوق الكلمات فزادها جـلاء وأصبحت تشعر بما يشعر به الجندي الذي يتلقى الأمر بالتقدم بعد طول الانتظار ، ولا يبقى أمامه سوى أن يصدع بما أمر به .

وحاول مدير المصحة ، بشتى الوسائل ، أن يثنيها عن عزمها . فما كان منها الا أن أجابته قائلة :

- انني لم أعد المريضة التي استقر قرارها على مواصلة العلاج . لم أعد أرى في نفسي سوى المرأة التي يحق لها أن تفعل ما تشاء ، وقد طرحت جانبا فكرة مرضها .

ورأت الدماء تتصاعد الى وجه مدير المصحة ، فتركها وانصرف يائسا .

●●●

حينما فرغت من اعداد حقائبها ، حدثت نفسها قائلة :

- ما أن يحل مساء اليوم حتى أكون بعيدة عن هذه الجبال .

ولاول مرة منذ عدة أعوام ، شعرت بقرب تحقيق الامل . هذا الامل الذي كان كالسراب الخادع ، يبتعد عنها كلما اقتربت منه . أنها واثقة هذه المرة من أنها تضع قدمها على أول الطريق . أنها لتقف في النقطة الفاصلة بين ماض من الوحدة ولت أيامه ومضت ، وبين مستقبل مجهول لا تعرف مداه .

وكانت تخشى أن يعود فولكوف ثانية ، وكانت تتوق في الوقت نفسه الى رؤيته ثانية . وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، وهي تحكم اغلاق حقائبها . وتريثت الى أن هدأت نفسها . ثم قامت بوداع أصدقائها من المرضى ، الذين كانوا يحملقون في وجهها في دهشة وذهول . ثم عادت الى غرفتها تنتظر . وبعد قليل سمعت نباح كلب بالباب . ونهضت تفتح باب غرفتها لتجد أمامها كلب فولكوف الكبير . وكان الكلب يحبها وكثيرا ما يصعد

لزيارتها . واعتقدت أن بوريس هو الذي بعث به اليها ، وأنه سيلحق به توا . ولكنه لم يحضر . وبعد قليل ، سمعت صوت محرك سيارة كلير فايت ، فرفعت على رأسه مودعة ، وأسرعت تهبط الدرج متسللة . وكانت ترجو أن تجتاز البهو دون أن يراها أحد ولكنها وجدت رئيسة الممرضات في انتظارها .

- لقد سألني الرئيس أن أبلغك بأنه في وسعك أن تبقي . بل وأن اقامتك بالمصحة ضرورية لك .

- شكرا .

وواصلت ليليان سيرها . فقالت لها رئيسة الممرضات :

- آنسة دنكرك . انك لا تدركين حقيقة وضعك . يجب الا تغادري منطقة الجبال الآن . انك أن فعلت هذا ، فلن تقدر لك الحياة الى نهاية العام .

- وهذا هو السبب في رحيلي .

وعند الباب الامامي للمصحة ، وجدت هولمان في انتظارها . فقالت له :

- الى اللقاء ، يا هولمان !

- الى اللقاء .. سألحق بك قريبا .

وقال لها كلير فايت ، عندما حيته منشرحة الصدر ،

- سأحرص على قيادة السيارة ببطء .. أحسنت صنعا بتذكرك بهذا المعطف .

- أجل وملابسي الداخلية من الصوف أيضا .. هلم بنا .

- ألم تنسي شيئا ؟

- كلا .

لقد كانت تتعجل الرحيل . وكانت تريد أن تطمئن

على أنها أصبحت بعيدة عن المصحة، وعن الجبال، وعن المنطقة بأسرها · وتحركت بهما السيارة ووقف هولمان يلوح لهما مودعا · ولم تر أثرا لبوريس ، سوى هذا الكلب الذي أخذ يعدو خلف السيارة بأقصى ما أوتي من سرعة . وشاهدت صفا من نزلاء المستشفى وقد نهضوا عن مقاعدهم بالشرفات يتطلعون الى السيارة ، ويتابعونها بأنظارهم ·

وعلق كلير فايت على هذا بقوله : « كالمصطفين حول حلبة مصارعة الثيران » ·

— ترى من عسانا أن نكون ؟ الثور أم المصارع ؟

— الثور دائما ، وإن كنا نعتقد أننا المصارعون ·

الفصل السابع

وانسابت السيارة على مهل ، فوق الطريق الملتوي بين الثلوج ، وكان بصرهما لا يقع الا على جدارين من الجليد يعلوهما شريط أزرق من السماء ·

وأخيرا لاحت لهما عن بعد ، مباني قرية صغيرة · وتوقف كلير فايت بسيارته أمام محطة البنزين القائمة عند مدخلها ، وسأل القائم على الخدمة بالمحطة عما عليه الطريق بعد القرية · وما أن سمع اجابته حتى التفت كلير فايت الى الصبي ، وبعد أن تأمله مليا قال له ، « أنني أعرفك ! تدعى هوبرت أو هيلمت أو ــ » ·

— هيوبرت ·

— أجل · هيوبرت جورنج .

وابتسم الصبي راضيا · وقام بتأدية ما هو مطلوب منه في نشاط الشباب ، بينما راح يتجاذب أطراف الحديث في شتى الامور مع كلير فايت .

ثم انطلق كلير فايت بسيارته ، الى أن خلف وراءه الجليد ، بعد مسيرة ساعة · وكان الماء يتساقط قطرات من أسطح المنازل ، ومن جذوع الاشجار ، وينحدر جداول

ــ ارجو ان يحوز اختيارى لالوان الطعام اعجابك ؟

ــ انني احب كل شيء هنا !

ــ وهذا ما اخشاه ٠

ــ وما هو سبب خوفك ؟

ــ لا يوجد ما هو اشد خطورة من امرأة تحب كل شيء ٠ وكيف يتأتى للرجل ان يحملها على ان تحبه دون سواه ٠ كيف يمكنه ان يستأثر بحبها ؟

فرنت اليه ضاحكة ٠ واقبلت الساقية تحمل صحاف الطعام وكؤوس النبيذ ٠

● ● ●

جالت بخاطر كلير فايت على امتداد الطريق ، شتى الخواطر ٠ ترى هل سيفقدها بمجرد وصولهما الى باريس ؟ كلا ، يجب ان احاول الاحتفاظ بها ٠ سأكون منتاهى السذاجة ان لم احاول ذلك ،

وسألها ، وهما يواصلان طريقهما الطويل :

هل لديك فكرة عما ستفعلينه فى باريس ؟

ــ لى عم فى باريس ٠ وهو الذى يتولى مصالحى المالية ــ واعتزم مطالبته بتسليمى كل اموالى ، وما احسبه الا معتقدا اننى لا زلت قاصرا فى الرابعة عشرة من عمرى ٠

ــ وكم من العمربلغت ؟

ــ بلغت الرابعةوالعشر ين وثمانين يوما ٠

فضحك كلير فايت قائلا : كنت فى السادسة والثلاثين وثمانين يوما ــ حين عدت من الحرب ، ولقد بلغت الان الاربعين ٠

من جنبات المرتفعات ٠ وكانت النوافذ تعكس بزجاجها ، اشعة الشمس الغاربة ٠ وكانت طرقات القرى تزدحم بالاطفال ، الذين يلهون ويعبثون ٠

وسألها كلير فايت : ــ هل تحبين ان نتوقف فى مكان ما ؟

ــ ليس بعد ٠

ــ هل تخشين أن يعود الجليد ليطوقنا

ــ انني أكره أن أراه ثانية ٠

ــ لن يكون هذا قبل حلول الشتاء القادم ٠

الشتاء القادم ــ لن يكون هذا أبدا !

وسألها كلير فايت : ــ الا يحسن بنا أن نتوقف عند أحد المطاعم لتناول قدح من القهوة بالكونياك ؟ ان الطريق امامنا طويل ٠

ــ فليكن ٠ ٠ متى سنصل الى بحيرة ماجيور ؟

ــ بعد بضع ساعات ٠

واوقف كلير فايت محرك السيارة أمام أحد المطاعم ٠ واستفسر من ليليان عما اذا كانت ترغب فى تناول شيء من الطعام ، فوافقت مرحبة .

وجلست ليليان الى مائدة بجوار النافذة ٠ وراحت تتطلع منها الى الاشجار القاتمة كالاشباح فى الظلام ، وكان كل شيء يبدو هادئا وادعا ٠ وكان هذا ، أول مساء لها مجردا من الخوف والقلق ، والثورة النفسية .هذه هى الحياة التى هربت اليها . الحياة التى حرمت من تذوقها أعواما دون جدوى وكان مقدرا عليها أن تحرم منها الى نهاية العمر ٠

واقبل كلير فايتيقول لها ، وهو يتخذ لنفسه مقعدا فى مواجهتها :

واخيرا اصبحا على مشارف البحيرة وسالته ليليان :

ــ اين ستقيم ؟

ــ بجوار البحيرة · فى فندق تامارو ·

ــ كيف تأتى لك ان تتعرف على كل مكان ؟

ــ لقد اقمت هنا عاما بعد الحرب · وستعرفين السبب فى صباح الغد ·

وتوقف بسيارته امام الفندق الصغير ، قائلا :

يقتنى صاحب هذا الفندق مكتبة كبيرة . انه من العلماء وثمة مدير لفندق آخر اعلى الجبل · يقتنى لوحات فنية رائعة لسيزان ، واوتريللو ، ولوتريك · ومن هذا القبيل ستشاهدين الكثير · ما قولك فى تناول طعامنا فى مكان آخر ؟

ــ اين يا ترى ؟

ــ فى بريساجو على الحدود الايطالية · فى مطعم يسمى جياردينو ·

ــ كما تشاء · انك ادرى بمعالم هذه البلاد ·

ولم يكن المطعم مزدحما · وكانت نوافذه مفتوحة ، والنسيم رقيقا · وفوق المائدة وجدا اناء به باقة من زهور الكاميليا البيضاء

وسألته ليليان : « قلت انك اقمت هنا عاما ؟ على شاطىء هذه البحيرة ؟

ــ اجل ، قرابة العام ·· بعد الحرب · وكنت ازمع الاقامة لايام قليلة ، ولكنها بلغت العام · لقد كنت بحاجة الى ذلك · بحاجة الى هذه الفترة من الاستجمام والراحة · فى صحتك !

ــ ان الطعام هنا متناهى الجودة ·

ــ اجل · وهذا بفضل عناية مدير المطعم المعروف بخبرته ·

ــ كلير فايت ! اننى جد سعيدة ، وان كنت لا اعرف ماذا تعنى كلمة السعادة على وجه التحديد ·

ــ وانا الآخر

ــ ألم يسبق لك ان شعرت بالسعادة ؟

ــ من حين لآخر . وكان شعورى فى كل مرة يختلف عن الاخرى · وكنت وحيدا فى اغلب هذه الحالات

فضحكت ليليان ولم تعقب · ونهضا عائدين الى اسكونا · وترك كليرفايت السيارة امام الفندق · واتجها عبر الميدان الى حانة هبطا اليها درجا قليلا ·

وقالت ليليان : « لا اشعر بميل الى مزيد من الشراب · اننى سكرى بنشوة ما يحيط بى من جمال · ماذا عساها أن تكون تلك الجزر فى وسط البحيرة ؟ » .

ــ يقولون انها كانت معبدا اقيم لفينوس فى عصر الرومان · وقد اقام عليها بعضهم مطعما فى ايامنا هذه · ويقولون ان الآلهة ما زالت تؤم المكان فى الليالى القمرية · وان مدير المطعم يجد فى الصباح كثيرا من زجاجات الخمر وقد افرغت مما بها دون أن تنزع سداداتها . ان هؤلاء الآلهة لم يكونوا يعرفون شيئا عن الشمبانيا · انها لم تعرف الا فى العصور الوسطى ·

وقفلا راجعين الى الفندق · ووقفت بنافذة غرفتها ، وقد امتدت امامها البحيرة ، والليل ، واشجار الربيع ··

واقبل كلير فايت يطوقها بذراعه · فاستدارت تواجهه لطبع على شفتيها قبلة طويلة · فقالت له :

ــ ألست خائفا ؟

ــ من ماذا ؟

ـ من العدوى

ـ اننى لا اخشى سوى انفجار اطار امامى ، وانا اقود سيارتى بسرعة قدرها مائة وخمسة وعشرون ميلا فى الساعة ٠

وزفرت ليليان زفرة حارة ٠ اننا متشابهان ٠ كلانا لا مستقبل له ٠ ان مستقبله لا يمتد لاكثر من السباق التالى ، ومستقبلى رهين بالنزيف التالى ٠ وابتسمت وسمعته يستطرد قائلا :

ـ ثمة قصة حول هذا الموضوع ٠ فقد كان هناك رجل فى طريقه الى منصة الاعدام فى باريس ٠ وكان الطقس شديد البرودة ، والطريق الى الجيلوتين طويل ٠ ووقف الحراس فى الطريق ، يشربون نبيذا من زجاجة معهم وبعد ان شربوا منها ، قدموها للسجين ليأخذ نصيبه منها . فتناولها منهم ؛ وبعد أن تسلمها لحظة ؛ قال لهم ، «من المفروض انه لا يوجد بيننا من هو مصاب بمرض معد» ٠ ثم رفعها الى فمه وأفرغ ما فيها ٠ وبعد نصف ساعة نفذ فيه حكم الاعدام ٠ ولقد روت لى هذه القصة جدتى ، حينما كنت فى العاشرة من عمرى ٠ وكانت تستهلك زجاجة من الخمر يوميا ٠ وكانوا يتنبأون لها بالموت فى سن مبكرة ولكنها لا تزال على قيد الحياة ولقى المتنبئون نحبهم منذ أعوام مضت ٠ لقد اتيتك بزجاجة من الشمبانيا المعتقة ٠

ووضع الزجاجة فوق قاعدة النافذة ٠ ثم اتجه الى باب الغرفة يزمع الانصراف ، فنادته ليليان :

ـ كلير فايت ٠ اننى لم ارحل عن المصحة لابقى وحيدة ...

الفصل الثامن

كانت ضواحى باريس تمتد امامهما كئيبة ، مظلمة ، ساكنة ، غير انه كلما امتد بهما السير الى داخل المدينة الكبرى تغير الحال ، وبدأت معالم البهجة تنفذ الى صدريهما . وبدت باريس جميلة رائعة ، براقة ، تتيه بنهرها وبتلك المبانى على جانبيه

وانبرى كلير فايت قائلا :

ـ من هذه البقعة ، اقتادوا مارى انطوانيت لاعدامها ٠ هناك مطعم ممتاز فى الجهة المقابلة ٠ فى هذه المدينة ويمكنك أن تقرنى الجوع بالتاريخ فى أكثر من مكان ٠ اين تودين ان تقيمى ؟

ـ فى هذا الفندق الصغير ٠

ـ هل لك به سابق معرفة ؟

ـ وانى لى ذلك ؟ ٠ حينما كنت هنا ، كنت اقيم فى بدروم

ـ ولماذا لا تقيمين مع عمك ؟

ـ ان عمى من البخلاء ٠ وارجح انه يتخذ له مسكنا من غرفة واحدة ٠ هلم بنا نعبر الجسر لنستفسر عما اذا

كانت لديهم غرف خالية . وأين ستقيم ؟

ــ فى فندق ريتز .

ــ طبعا .

وعبرت السيارة بهما الجسر الى طريق سانت ــ ميشيل ، ثم الى كورنيش جراند اوجستين ، حيث توقفت امام فندق بيسون . وعاد كلير فايت يسألها :

ــ هل تزمعين حقا ان تقيمى هنا ؟

ــ ان هذا الفندق هو الذى يناسبنى ، ببساطته وموقعه .

ولم يكن بالفندق مصعد ، غير ان الغرفة الخالية كانت بالطابق الثانى . وكانت صغيرة فقيرة الاثاث . وان كان مما يعوض هذا النقص ، أن نافذة الغرفة كانت تطل على النهر ، وعلى كنيسة نوتردام .

وسألها كلير فايت قبل انصرافه :

ــ هل توافقين على تناول العشاء معى الليلة ؟ وليكن ذلك فى الساعة التاسعة .

ــ الى اللقاء ، فى الساعة التاسعة .

ووقفت تتابع سيارته بأنظارها . ولم يحدث انهما تبادلا كلمة واحدة عن تلك الليلة بأسكونا ، اثناء قطعهما هذه المسافة الطويلة الى باريس . وارتقت الدرج الى غرفتها ، حيث وقفت بالنافذة تفكر وتستعرض ، قد يعود ، وقد لايعود . انه امر غير مؤكد . كما ان عودته وعدم عودته ليست بالبالغة الاهمية ان كل ما يعنيها الان ، انها فى باريس تتنسم هواءها ، وتملى عينيها امتها ، ومن كل مظاهر الحياة فيها .

وبدأت تفض حاجياتها . انها لم تأت بالكثير معها . كما انها لا تحمل معها الكثير من النقود .. وحاولت

الاتصال بعمها دون جدوى . واعادت الكرة ، لتسمع صوتا غير مألوف لديها . وانتهت اخيرا الى الرأى بأن عمها قد تنازل عن اشتراكه فى التليفون . ثم تبادر الى ذهنها ما روعها .. ان عمها لم يكتب لها منذ فترة طويلة ، ترى هل فارق الرجل الحياة ؟ لقد كانت تتلقى نقودها من البنك رأسا . وجلست تفكر مليا فى الموقف من كل وجه . ان ما معها من نقود لا يكاد ان يقوم بنفقاتها اسبوعا . ترى ماذا هى فاعلة ؟

وسمعت طرقا على باب غرفتها .. وكان الطارق حارس باب الفندق يحمل اليها لفافتين . وكان بأصغرهما حجما باقة من الزهر . وبالثانية غطاء من الصوف مرفق به هذه الرسالة من كلير فايت :

رأيت انك قد تكونين بحاجة الى هذه لان وسائل التدفئة فى باريس لم تزل دون الكفاية .

ونهضت ترتدى ثيابها .. ان رسالة عمها الاخيرة ما زالت معها ، وبها عنوانه الذى دونه بها منذ ستة اشهر . وليس عليها الان ، الا ان تبحث عن هذا العنوان وتواصل تحرياتها عن عمها هناك .

ولم تلق كبير عناء فى البحث عن عمها ، اذ كان مازال مقيما فى مسكنه القديم . كل ما فى الامر انه تنازل عن تليفونه .

وبعد ان ابدت به رغبتها ، قال لها :

ــ امو الك ؟ كما تشائين ولكن ، ماذا انت فاعلة بها ؟ وقيم هذه العجلة ؟

ــ اريد ان ابتاع ما اشاء وما يحلو لى من ثياب .

فحملق الرجل فى وجهها وقد استبدت به الدهشة قائلا :

ـ انك صورة طبق الاصل من والدك .

ـ ان والدى قد مات

ـ لم يعد لديك الكثير مما خلفه لك والدك . ماذا تعتزمين ؟ ولماذا تغادرين سويسرا ؟

ـ انني لم اغادر سويسرا . لقد غادرت المصحة ، التي لم اعرف سواها مكانا من سويسرا !

ـ ولكنك قد تبددين ما تبقى لك في اسابيع قليلة وبعدها ..

ـ اطمئن .. لن أثقل عليه او أصبح حمـــلا على كاهلك .

ـ ولماذا لا تتزوجين ؟ هذا ما ينبغي لك . وفي وسعي ان ادبر امر لقائك بالبعض من خيرة الناس .

وضحكت ليليان وتملت هذا الرجل البالغ الثمانين من سني حياته ، وهو واقف امامها وكأنه قادر على اجتياز ثمانين اخرى ، فقالت له :

ـ فليكن .. والآن خبرني .. ماذا تفعل في وحدتك ؟

ـ ماذا افعل ؟ كل ما يفعله الناس .. فيم سؤالك ؟

ـ الم يسبق لك ان شعرت بتلك الرغبة الجامحة في الانطلاق الى أرجاء العالم ، غير مدخر وسعا في تذوق الحياة بجميع صورها ؟

ـ الم اقل لك ؟ انك صورة من والدك ! انه لم يكن ليشعر بأنه رجل مسئول .. كان مستهترا لا يحسب حساب المستقبل .. يدور بخلدى الآن ، انه من الخير لك ان اطالب بالحجر عليك .

ـ انك تعتقد أنني سأبعثر اموالي في سفه واسراف ولم يدر بخلدك أنك تبدد سني حياتك هباء .. دعنا من الاسترسال في هذه المناقشة العقيمة .. انني اريد ان

اتسلم اموالي غدا . لانني اريد ابتياع تلك الثياب فورا ولا تنس ان المال مالي .

ـ ان والدك

ـ أريده غدا .

وطبعت قبلة على جبينه . ولكنه استطرد قائلا :

ـ ليليان ! استمعي الى ! اياك والاندفاع . ان ابتياع الثياب من المتاجر ذات الاسماء الرنانة يكلف غاليا !

ـ وربما كان هذا صحيحا ولكني لا ابالي

ـ تماما ، تماما ، مثل والدك !

ـ عماه ! الا تخشى الموت ؟

ـ ان خواطرك لشاذة غير مألوفة .

ـ هذا صحيح . فما كان لي ان اوجه اليك مثل هذا السؤال . ولكنني كثيرا ما اسأل نفسي هذا السؤال بحيث اصبح مألوفا لدى ، ونسيت انه يفزع الغير .

ـ انني ما زلت في صحة جيدة . فاذا ما كنت تمنين النفس بتركتي فقد يطول بك الانتظار .

ـ كلا . ان شيئا من هذا القبيل لم يجل بخاطرى .

ـ اين تقيمين ؟

ـ في فندق بيسون

ـ حمدا لله ! انك لا تقيمين بفندق ريتز .

● ● ●

في الموعد المحدد جاء كلير . واصطحبها الى مطعم جراندفيفور . وسألها ـ

ـ ماذا كان للدنيا في نفسك من انطباع ؟

ـ اشعر بأنني اعيش بين قوم يعتقدون انهم يعيشون ابدا ولن يموتوا انهم حريصون على ما يملكون منها ،

بينما يتركون ايامها تنساب من بين اصابعهم .

ـ ومع ذلك ، فانهم جاهروا في زمن الحرب بانهم لن يعودوا لارتكاب هذا الخطأ ، اذا ما تركت لهم الحياة. ان الانسان لينسى كل شيء ، بعد زوال الخطر .

ـ وهل كان هذا هو شأنك ؟

ـ كلا . حاولت ان انسى دون جدوى .

ـ الهذا السبب احببتك ؟

ـ انك لا تحبينني .. اذا ما كنت تحبينني حقا ، لما نطقت بهذه الكلمة بكل سهولة ـ ولما صارحتني بذلك .

ـ ترى هل احببتك لانك لست ممن يفكرون في المستقبل ؟

ـ اذا كان الامر كذلك ؛ لكان لك ان تحبي كل نزيل معك في المصحة . لترى الان ـ ماذا تأكلين ؟

ـ لماذا احببتك انت بالذات

ـ لانني معك هنا . ولانك تحبين الحياة انني طراز مجهول الاسم من الحياة بالنسبة لك . ولشدة ما في هذا الشعور من خطورة .

ـ بالنسبة لي ؟

ـ بالنسبة للطراز المجهول ، فما أيسر أن يحل محله آخر .. انني راحل غدا .

ـ الى اين ؟

ـ بعيدا .. يجب ان اذهب الى روما .

ـ اما انا فيجب ان اذهب الى متجر بالنشياجا لابتياع ما ابغي من ثياب . اظن انه ابعد مدى من روما .

ـ انني اذهب الى روما فعلا . فثمة عقد يجب ان ارى ما توفيه .

ـ حسنا . سيتيح هذا الفرصة لي لافرغ لمشترواتي .

لقد تحدث عني جابلستون عن وضعي تحت الحجر وعن تدبير امر زواجي .

فضحك كثير فايث قائلا : « بوده لو انزلك في سجن آخر قبل ان تتذوقي طعم الحرية » .

ـ وما هي الحرية ؟

ـ لست ادري ، كل ما اعرفه عنها انها شيء يصبو اليه الجميع ولا يمكن تعميم وصفه .

ـ ومتى ستعود ؟

ـ بعد بضعة ايام .

ـ وهل لك صاحبة في روما ؟

ـ أجل .

ـ هذا ما كنت أعتقد .

ـ ولماذا ؟

ـ لان هذا هو ما يتفق مع طبيعة الاشياء وانا بدوري كان لي صاحب حينما اتيت لزيارتنا هناك .

ـ والان ؟

ـ والان ، انني نشوى بحياتي الجديدة ؛ بحيث اصبحت عاجزة عن التفكير فيها .

● ● ●

بعد ظهر اليوم التالي ، توجهت الى متجر بالنشياجا وجلست تستعرض عارضات الازياء وتمعن النظر فيمن جلس من العميلات .

واستقر رأيها على ما راق لها من ثياب ؛ وسألتها المشرفة ان تنهض لتجربة مقاسها ، فاستفسرت ليليان منها عن الفترة اللازمة للاستلام ، فاجابتها :

ـ بعد ثلاثة او اربعة اسابيع على الاقل .

ـ انني أريدها فورا .

ـ لا يمكن . غير أننا سنبذل أقصى ما في وسعنا . أننا مثقلون بالعمل . وسنحاول اعدادها في أقرب وقت .

ووقفت أمام المرآة ، تستبدل ثوبا بآخر وهي تستمع لاطراء العاملة لذوقها وحسن اختيارها .

وتكاثرت حولها العاملات ، يرددن الاشادة بجمالها ، وما يضفيه على ثيابها من روعه .

واتفقت أخيرا مع من بيدهن الامر ، على الحضور للاستلام في مدى اسبوعين ، مراعاة لظروفها الخاصة .

وغادرت ليليان المتجر راضية ، قريرة العين .. انها تتأهب لاستقبال الحياة !

الفصل التاسع

عاشت هذين الاسبوعين في نشوة رائعة وبعد أن تسلمت ما أعد من ثياب لها ، بعثت بالفواتير الى عمها جاستون ، الذي لم يكن قد حول اليها حسابها بعد ، بحجة أن الامر يتطلب الكثير من الاجراءات .

وزارها عمها في اليوم التالي وقد ثارت ثائرته ، قائلا انها أبعد ما تكون عن الشعور بالمسئولية ، مطالبا اياها بالانتقال الى مسكنه .

ـ حتى أكون تحت سيطرتك ؟

ـ لكي تكوني أكثر تعقلا . انها لجريمة أن تدفعي مثل هذه المبالغ الطائلة ثمنا لبعض الثياب .. انها يجب أن تكون مصنوعة من الذهب لكي تساوي هذا الثمن .

ـ لو رأيتها لغيرت رأيك .

ـ مهما يكن من أمرها ، فان هذا لا يبرر بحال ما أن يبيع المرء ما لديه من أسهم وسندات تغل عليه دخلا محترما ، في سبيل ابتياع هذه المستهلكات ، يجب ان اتخذ الخطوات اللازمة لوضعك تحت الحجر .

ـ فلتحاول ذلك ، ان احدا من القضاة لن يستمع اليك . وقد تنقلب الاية عليك في نهاية الامر .. اذا لم

تعجل بتسليمي كل ما لي عندك ، سأبتاع ضعف ما أنا بحاجة اليه وأبعث اليك بالفواتير .

— اتبددين ثروتك في هذه الخرق البالية .. ؟ انت اذن ..

— كلا ، لست بالمجنونة . وان المجنون هو من يعيش على الحرمان ، وهو يعرف أن أيامه في الحياة معدودة ويخلف ماله لورثة يبددون تركته . دعنا من هذا الحديث ، واقبل دعوتي لتناول طعام العشاء . ان الطعام هنا جيد ، وسأرتدي من أجلك ثوبا جديدا .

— لا تغيري مجرى الحديث . أن بعثرة النقود ..

— انك ستكون ضيفي . واريدك أن تحدثني بالكثير عما يضطرب الناس فيه من حياة . هيا ، فلتجلس في انتظاري بالطابق الاول حيث ألحق بك .

● ● ●

بعد ساعة هبطت اليه الدرج . وكان العم شاحب الوجه وقد أمضه طول الانتظار ، وسرها أنه لم يتعرف عليها . لاول وهلة . وأقبلت عليه قائلة :

— انما عرفتني فقد رأيتك تصلح من شأنك وتعتدل في جلستك .

هراء . ان قوة ابصاري ضعفت . ثم انك .. ولكن لمن ترتدين هذا الثوب ؟

— لنفسي .. لمتعة نفسي .

— أليس لك ..

— كلا . أعرف ما يجول في خاطرك .

— هل تشعرين بالوحدة ؟

— أجل .

وتقدمت الى مطعم الفندق . ولاحظت أنه يلتزم في انتقاء طعامه بقائمة الاسعار . أن هؤلاء البخلاء يفقدون القدرة على تذوق الحياة والاستمتاع بها في غمار حرصهم الشديد . أن هؤلاء البخلاء يفقدون القدرة على تذوق الحياة والاستمتاع بها في غمار حرصهم الشديد. وحينما راح يحدثها عن طفولتها ، قالت له : « دعنا من هذا الحديث . أريد ان أعرف منك شيئا واحدا : لماذا سميت بليليان » انني أكره هذا الاسم ؟ » .

— كان هذا بناء على رغبة والدك .

— ولماذا ؟

— حينما كان في مقتبل العمر ، سافر هو ووالدتك الى نيويورك لفترة ما . ولقد علمت فيما بعد ، بأنه كان على علاقة غرامية بفتاة تدعى ليليان : معذرة ! انك من ..

— انني جد مسرورة لعلمي بذلك . كنت أحسب أن الاسم كان من اختيار والدتي : التي كانت تهوى القراءة فحسبتها انتقته من أحد الكتب .

— ليلي ؟ هل تعتزمين الاقامة هنا ؟ الا ترين أنه لا يليق بك ؟

— ان النبيذ قد أتى ثماره ! وجعل منك أكثر انسانية ! .

— سأقيم مأدبة تكريما لك .

— حسنا .

— لقد أصبحت فتاة رائعة الحسن .

● ● ●

وفي روما : كان كلير فايت يقضي نهاره بين مكاتب العمل ، وبين المقاهي . وكان يمضي أمسياته مع ليديا

موريللي وكان يفكر في ليليان ، في أيامه الاولى من حين لآخر . ثم نسي أمرها ، فيما بعد ذلك من أيام . لقد كادت أن تستحوذ على لبه ، الامر الذي لم تكن له به سابقة عهد مع النساء . وكان رآها بمثابة صغيرة تجنح الى المغالاة في كل ما تفعل . ولعلها أن تجنح الى الاستقرار أخيرا . انها لتعتزل أسيرة ما يتملكها من خاطر انها يجب أن تلحق بقطار الحياة قبل أن يفوت الاوان . وسرعان ما ستجد أن خواطرها لم تكن سوى أوهام . وتصبح كغيرها من النساء — من طراز ليديا موريللي مثلا . صحيح انها لم تؤت بداهة ليديا أو حنكة تجاربها . انها من هذا الطراز من النساء اللاتي يلتمسن الرجل العاطفي الشاعري . الذي يمكنه أن يكرس لها الكثير من وقته . وهو ليس بالرجل الذي يصلح لها . كان يجب أن تبقى الى جوار فولكوف . انه الرجل الذي يصلح لها ، وان كان لم يستطع الاحتفاظ بها . ان كليرفايت ينتهج أسلوبا مختلفا من الحياة . وهو لا يريد أن يرتبط بشيء ارتباطا وثيقا . ان ليديا موريللي هي المرأة التي تناسبه . ولم تكن ليليان سوى تجربة عارضة لها سحرها المؤقت في فترة اجازته .

وبعد ان انتهى به تفكيره الى هذا الرأي ؛ شعر بالراحة وسرى عنه . وليس أمامه الآن سوى أن يتصل تليفونيا بليليان في باريس .. موضحا لها حقيقة الوضع بينهما . ولعل الامر لا يتطلب منه ايضاحا . فقد تكون ليليان قد انتهت من استعراضها للامر الى ما انتهى اليه هو . ولكن . فيم هذه الرغبة التي يشعر بها في أن يلقاها ثانية ؟ ولم يطل به تفكيره في ذلك . فبعد أن تم توقيع عقده بيومين ، أبدت ليديا موريللي رغبتها في السفر الى

باريس . ولما كانت تكره السفر بالسيارة أو جوا ، فقد استقلت القطار بينما استقل هو سيارته .

● ● ●

كانت ليليان تخشى الليل بظلامه . فقد كان يعشى لديها ضيق التنفس ، والوحدة القاتلة ، والخوف المجسم من الموت . وكانت تحتفظ بغرفتها مضاءة في الصحة ، لتقصي عنها تلك الاشباح التي تتراءى لها في الظلام . وكانت ليالي باريس أرفق بها ، بما تزخر به من ضوضاء وحياة لا تهدأ حتى الصباح . وكانت تقضي بعض هذه الليالي وهي تتحسس ثيابها الجديدة ؛ وتمني النفس بما سيكون من أمسيات المستقبل بل كانت تنهض أحيانا فترتدي البعض منها ؛ وتقف أمام المرآة تتأمل جمالها وتمتع عينيها بصورتها الجديدة ، التي تتفجر أنوثة وبهاء .

وحينما تم بينهما اللقاء ثانية ، وقف كليرفايت يحملق بعينيه — فقد تغيرت من حال الى حال وكان قد اتصل بها تليفونيا ، بعد عودته الى باريس بيومين — لقد قام بذلك لمجرد تأدية واجب المجاملة وبفكرة قضاء ساعة لقاء معها . وبعد اللقاء أصبحت الساعة أمسية بطولها . ولم يكن ما شده اليها هو تأثره بروعة ثيابها كلا . لقد رأى كثيرات بثياب لا تقل جمالا . وكانت ليديا موريللي من تلك النساء الخبيرات بالثياب الغالية الثمن . ان الامر أكثر من ذلك وأعمق . فقد بدا له انه ترك فتاة ناشئة ، وعاد بعد بضعة أسابيع ليجد أمامه امرأة مكتملة الانوثة طاغية السحر . ورآه يعدل عن قراره السابق ، ويزداد بها تعلقا ..

بعد بضعة أيام من لقائهما قالت له ليليان : « ان عمى جاستون يريد أن يقيم مأدبة من أجلى » .

ـ هكذا ؟

ـ أجل . لانه يريد أن يمهد لى طريق الزواج

ـ وفيم هذه العجلة ؟

ـ انه جد قلق من أجلى .. انه يريد أن يحمى بهذا الزواج نتائج اسرافى وتهورى .

والتزم كلير فاليت جانب الصمت . فاستطردت قائلة :

ـ يبدو انك فقدت لسانك فى روما ؟ أم ترى هى المرأة التى قدمت منذ لحظة ؟

وكانا يجلسان الى مائدة فى مطعم جراند فيفور الذى سبق أن تناولا به طعام العشاء فى أول ليلة لهما فى باريس . فقال لها أخيرا :

ـ أية امرأة ؟

ـ أويجب ان أحدد لك مكان جلوسها ؟

وكان كلير فاليت قد لمح ليديا موريالى فى قدومها ، وما أن وقع نظره عليها ، حتى تساءل فيما بينه وبين نفسه دهشا :

ـ « ترى ماذا أتى بها الى هذا المطعم بالذات » ؟

ولم تكن له معرفة سابقة بالرجل الذى كانت فى صحبته . وكان كل ما يعرفه أنه يدعى جونسون وأنه من كبار الأثرياء . وتبادر الى ذهنه أنه سبق أن اصطحب ليديا الى هذا المطعم أكثر من مرة . ولما كان قد اعتذر لها عن عدم استطاعته تمضية مساء اليوم فى رفقتها ، فقد ادركت بثاقب فكرها ، انه ربما يكون على موعد مع امرأة أخرى ، وأن من المرجح أن يصطحبها الى مطعمه المفضل .

وقطعت عليه ليليان حبل أفكاره بسؤالها :

ـ هل تعرفها ؟

ـ أجل .. ولكنها ليست معرفة خاصة .

وتبين أن ليديا لم ترفع عينيها عن ليليان ، وأنها كانت تدرس بامعان كل قطعة من ثيابها . وليديا خبيرة فى مثل هذه الاشياء ، وخير من يزنها بميزانها الصحيح . ورأى أن يستغل الموقف الذى لم يكن فى الحسبان لصلحته وعندما سمع ليليان تقول .

ـ أنها تمعن بمناقتها .

ـ أنها معروفة بذلك .

وكانت ليديا فى الاربعين من عمرها ولكنها تبدو فى الثلاثين نهارا ، وفى الخامسة والعشرين ليلا .

وتوقع كليرفاليت أن تبدى ليليان ملاحظة بشأن مس ليديا . ولكنها اكتفت قائلة ، « أنها جميلة .. هل كانت لك بها علاقة ؟ »

ـ كلا .

ـ ويلك من أحمق !

ـ ولماذا ؟

ـ لانها رائعة الحسن . أتراها من روما ؟

ـ أجل .. من روما . هل تغارين منها ؟

ـ يالمسكين ! كلا . فليس لدى متسع من الوقت للشعور بالغيرة

فحملق كلير فاليت فى وجهها دهشا .. ولو أن ليليان كانت امرأة أخرى ، لكان قد رأى فى قولها هذا مجرد مراء . ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أن ليليان صادقة فيما قالت . أنها تعنى هذا فعلا ولم تنطق الا حقا . وفجأة وبدون مقدمات وجد انه يقول لها محاولا أن يسيطر على أعصابه .

- هل يمكن أن نخوض في حديث آخر ؟

- لماذا ؟ ألانك عدت الى باريس تصطحب امرأة أخرى ؟

- هراء ما تقولين ! ما الذى يحملك على مثل هذا الظن ؟

- أليس هو الحق ؟

- بلى ، انه الحق .

وشعر كليرفايت أنه لولى له لن يقلع عن انكاره . وبدلا من أن تثور ، سمعها تقول له :

- اسمح لي أن أطرى ذوقك .

وأطرق في انتظار السؤال التالي . وكان على استعداد للافضاء بكل شيء . وكان يدرك انه مسئول عن هذا الموقف ، وأن منطقه لن يسعفه في الخروج منه . ولم يعد أمامه سوى المخاطرة لعله أن يستعيدها أو يفقدها الى الأبد . فقال لها :

- ليليان ، انني لم أضع نصب عيني أن أفرض نفسي عليك وأنغمس في علاقة غرامية بك .

فابتسمت قائلة : ان هذا الا قول صبي لم يشب عن الطوق . ولست أرى فيه علاجا للموقف .

- كلنا في الحب صبية أغرار .

- الحب .. ؟ ياله من لفظ أخاذ ! لكم تخفي هذه الكلمة تحتها من أشياء ! هل توافق على مغادرة هذا المطعم ؟

- الى أين ؟

- أفضل العودة الى غرفتي بالفندق .

ولم يعقب كليرفايت بشيء . ودار بخلده أن كل شيء بينهما قد انتهى . ونهضا في طريقهما الى الباب ، مارين بمائدة ليديا موريللي . وتجاهلت ليديا كليرفايت

وأومأت ليليان الى سيارة كليرفايت التي كانت بجوار باب الدخول قائلة :

- هذه السيارة هي التي كشفت أمرك . هيا بنا الى الفندق .

- لم يحن الوقت بعد . هلم بنا الى حدائق القصر الملكي .

- لقد طفت بهذه الحدائق أكثر من مرة . ألا تخشى اتهامك بالزواج من اثنتين ؟ .

- دعينا من هذا الحديث الآن . هيا معي .

ودلفا الى حدائق القصر . وكانت رائحة الزهر نفاذة قوية والنسيم عليلا منعشا . وتوقف كليرفايت عن السير قليلا لا تقولي شيئا ، ولا تطالبيني بمزيد من الايضاح ؛ انني لا قبل لي بشيء من هذا القبيل .

- وما عساني أن أطالبك به من ايضاح ؟

- أحقا ما تقولين ؟

- أجل . لم يطرأ على بالي شيء من ذلك .

- انني أحبك .

- انني لم أجعل من الأمر مشكلة ومشهدا بيننا !

- كلا . أحبك لما لمسته منك من مسلك ممتاز .

- لست أرى فيما كان مني ما هو جدير بكل هذا الاطراء . أتعرف لماذا لانني لا أعرف كيف تكون هذه المشاهد .

وكانت تقف في مواجهته ، وقد عبث النسيم بخصلات شعرها . ورآها أمامه وكأنه لم تسبق له بها معرفة من قبل . وألفى نفسه يقول لها :

- أحبك . ويحتضنها بين ذراعيه ويقبلها ولم تقاومه بل ظلت متعلقة بذراعيه ، غائبة عن وعيها . فأمسك بها من كتفيها قائلا .

ـ قولى شيئا ! أى شىء ! قولى لى أن أذهب بعيدا عنك ، إذا كان هذا هو ما تريدين .. اصفعينى على وجهى ولكن لا تقفى هكذا كتمثال أصم .

فتخلصت من قبضته قائلة :

ـ ولماذا أسألك أن تذهب عنى ؟

ـ هل تريدين منى حقا أن أبقى معك ؟

ـ أن كلمة «تريد» ليس لها محل فى ليلتنا هذه . هل تحس بلمسات النسيم ؟ ترى ماذا يريد هذا النسيم ؟

فتأملها قليلا . ثم قال لها وقد تملكه شعور جارف :

ـ أعتقد أنك تعنين كل ما تقولين .

ـ ولم لا ؟ لقد قلت لك أن الأمر أهون مما تفترض .

وأطرق قليلا ، وهو لا يدرى ماذا يقول أو يفعل . وأخيرا قال لها

«فليكن . سأذهب بك الى حيث تريدين .. الى الفندق .

ومشيا ذراعا فى ذراع . وراح يحدث نفسه قائلا :

«ماذا دهانى ؟ .. لقد اختلط الأمر على ، ولم أعد أدرى من أمر نفسى شيئا . لقد أغضبتها ، وأغضبت ليديا ، وأنا وحدى الملوم» .

وبلغا من سيرهما حيث أودعا أمام المطعم سيارتهما وفى هذه اللحظة كانت ليديا موريللى وصديقتها منصرفين من المطعم . وكان عليهما أن يتريثا الى أن يتحرك كليرفايت بسيارته . ولم يكن ثمة بد من أن تبدأ كليرفايت تحية وتقدم اليه صديقها . واستتبع ذلك اتمام التعارف بين المرأتين . وبينما كان كل من الرجلين منهمكا فى مناورة التحرك بسيارته فى الشارع الضيق ، كانت ليديا تضيق الخناق على ليليان لتعرف منها كل ما تريده

عنهما ، فى جراءة لا تتفق وحداثة عهدهما بالتعارف . وكانت ليليان بدورها ، حريصة على أن تتجاهل هذه المناورة وتجيب عما يوجه اليها من أسئلة فى سذاجة ورقة ، أبهدت على الأخرى عدوانها المقنع ، ولم يخف هذا على صديق ليديا ، صارحها بما تبينه ، عندما استقلت سيارته ، وذهب كل فى سبيله .

• • •

وفى طريق العودة بالسيارة قال كليرفايت لليليان ، لقد «أدبت فورك خير أداء أنها لم تعرف منك من عساك أن تكونى . ولا من أين أنت قادمة ، ولا أين تقيمين» .

ـ ولكنها سرعان ما ستعرف كل شىء عنى .

ـ ممن ؟ منى .

ـ من صانع زينتى . لقد عرفت من يكون .

ـ وهل ضايقك منها ذاك ؟

ـ لا يعنينى هذا فى كثير أو قليل . سر بنا عن طريق ميدان الكونكورد . فاليوم يوم أحد . وستكون النافورات مضاءة .

ـ أنك ما عدت تهتمين بشىء . ترى ماهو السر فى ذلك ؟

وجال فى خاطرها ما كانت تود أن تجيب به لأننى أعرف أن منيتى قد حانت ، وأن أيامى فى الحياة معدودة .. لقد وطنت نفسى على ألا أرى من الحياة غير جانبها المشرق ، وعلى ألا أدع شيئا ما يعكر على صفو هذه الحياة . ولكنها قالت له لتغير مجرى الحديث ، «تأمل هذه النافورات !» .

وقاد سيارته على مهل حول الميدان . وكانت ترى فى كل ما حولها الجمال ، وتمتع ناظريها بمشهد المياه

المتغيرة الالوان ، وتنصت لتسمع فى خريرها همسات الحالمين ، ياله من ميدان جميل ! »

ـ أجل . هذا الميدان الجميل كان مسرحا لمأساة التاريخ ، ومشهدا لقطع رأس مارى انتوانيت فى يوم ما . يا أعجب تصاريف القدر !

ـ وتقدم بنا الى الشانزليه ، ليتيسر لنا مشاهدة نافورات روندبوا ·

وسألها كلير فايت : بعد أن بلغ من سيره تلك النافورات . ، وهذه ، ألا تثير اهتمامك هى الأخرى ؟!

ـ أن روعتها لا تقاوم ·

وشعر بالرغبة فى أن يودع شفتيها قبلة تطفىء ما فى قلبه من هيام · ولكنه لم يكن واثقا مما سيكون من أمرها معه · ووجد نفسه يقول لها فى حرارة وانفعال :

ـ أحبك . ليليان ، هلا نسيت كل شىء . كل شىء عن هذه المرأة .

ـ ولماذا لا تكون لك صاحبة ؟ وهل تعتقد أن هذا لم يكن من شأنى ؟

ـ فى المصحة ؟

ـ بل فى باريس · أننى لا أطيق الوحدة · والآن ، هيا بنا الى الفندق لأننى متعبة ·

واندفع كلير فايت بسيارته وهو جد محنق لمواجهته بما أثار غضبه بينما يشعر بالعجز عن مناقشتها فى ذلك ، بعد أن تكشف لها أمر علاقته بليديا · ومهما يكن من أمر ، فان ما يعنيه الآن ، هو الا يفقدها . وانه لايدرى ماذا هو فاعل ؟ انه لا يستطيع الآن أن يودعها عند باب الفندق ، ثم يواصل طريقه . أن هذه هى فرصته الأخيرة ، فان هى افلتت من يده ، فسيفقدها الى الأبد .

وعند باب الفندق ، قرر الا يودعها ، بل قال للحارس :

ـ هل يمكن أن تأتينا بشىء من المطبخ ؟

ـ بكل سرور ، ياسيدى .. ماذا تريد ؟ شمبانيا بيرة ؟

ـ نريد قبل هذا قليلا من الكافيار ·

ـ هذا غير ممكن · لان مفتاح الثلاجة مع المديرة ·

ـ اذن فلتأتنا به من مطعم لابيروز الكائن عند الناصية . وسنقف فى انتظارك هنا . وسأظل محلك ريثما تعود ·

فانبرت ليليان قائلة : « ليست بى رغبة فى تناول شىء من الكافيار » ·

ـ ماذا تريدين اذن ؟

ـ كليرفايت ، أننى لا أصطحب معى أحدا فى مثل هذه الساعات من الليل ·

وأردف الحارس قائلا : « فى الواقع ، ان السيدة لا تصطحب أحدا عند عودتها . ان هذا أمر غير مألوف هل آتيك بزجاجة من الشمبانيا ؟

ـ ائتِ بها ، وبأى طعام تأمر به السيدة . هيا ، تحرك .

• • •

وعاد الحارس يحمل الشمبانيا ، وما أمرت به ليليان من طعام · واستفسر منه كليرفايت عما اذا كان لديه غرفة خالية له ان الغرفة رقم ٦ المجاورة لغرفة ليليان خالية · وأمره كلير فايت بأن يحمل اليها الطعام والشراب ، كما أمره بشراء قطعة من الصابون وفرشاة أسنان وبعض حاجيات أخرى ، وأن يترك هذا كله أمام باب غرفته فى الصباح ·

وبعد أن استقر بهما المقام في غرفتها ، قال لها كليرفايت : « كنت أخشى أن تركتك الليلة ، ألا نلتقي ثانية » .

وكانت ليليان جالسة فوق قاعدة النافذة . فرنت إليه قائلة :

« وهذا ما يدور بخلدي كل ليلة » .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ أنني قد لا أرى ما أراه ثانية .

وشعر بألم دفين في صدره . ورآها حيث تجلس ، تمثالاً للوحدة القاسية . فقال لها :

« أحبك لست أدري ما لهذا الاعتراف من صدى في نفسك . ولكنه تعبير صادق عما أشعر به » .

ولم تعقب بشيء . واستطرد قائلاً :

ـ إنك تعرفين أنني لا أقول لك هذا نتيجة لما حدث الليلة ، إنني لا أحب أن أكون سبباً في إيلامك .

ـ أعتقد أنني أبعد ما أكون عن أن يساء إلي . لقد سبق لي أن صارحتك بهذا تعقيباً على ما حدث .

ولم يدر كليرفايت بماذا يعقب على قولها هذا . إن الغموض يكتنف ما تفضي به إليه . وآثر أن يدع الأمر عند هذا الحد . فتأملها قائلاً :

« إن كل ما فيك جميل أخاذ . ألا تريدين أن تأكلي أو تشربي شيئاً ؟ » .

ـ بلى . ناولني ما تشاء فالليل لنا .

ـ بعد بضعة أيام ، سأسافر إلى صقلية للاشتراك في سباق يجري هناك . هل تسافرين معي ؟ إن احتمال فوزي بهذا السباق بعيد !

ـ وهل تريد دائماً أن تكون الفائز ؟

ـ هذا ما يجب أن يتحلى به الإنسان .

الفصل العاشر

كان عصفور الكناريا يصدح مترنماً في هناء . وصحا كليرفايت من نومه على النغم الجميل . وألقى نظرة على ساعته . إنها ساعة الظهيرة . تلك أول مرة منذ شهور ينام فيها إلى مثل هذه الساعة من النهار . ونهض يفتح باب غرفته ، ليجد ما أمر به الحارس من حاجيات . وعاد إلى الحمام يغتسل ، ثم يرتدي ثيابه .

وتوجه إلى غرفة ليليان ، التي استقبلته هاشة ، وهي تسأله عما إذا لم يكن قد تناول طعام إفطاره بعد . فلما أجابها نفياً ، قدمت إليه الخبز ، والزبد والمربى ، ثم أشارت إلى رسالة فوق المنضدة قائلة : « إنها من عمي جاستون . إنه سيقيم مأدبة عشاء بعد الغد ، تكريماً له . هل تحب أن آتيك بدعوة ؟

ـ كلا .

ـ حسناً . إنها قد تفسد الغرض من هذه المأدبة . إنها تقام بهدف اختيار زوج أخرى لي . أم تراك من الأثرياء ؟

ـ ليس لأكثر من بضعة أسابيع . هل ترفضين الزواج إذا ما عثرت على الزوج المريض الثراء ؟

ـ الى بكأس من النبيذ ولا تكن غبيا .

ـ أنك قادرة على كل شيء .

ـ منذ متى سيطر على ذهنك هذا الاعتقاد ؟

ـ منذ أن فكرت في أمرك مليا .

ـ ومتى تسنى لك أن تفكر في أمري ؟

ـ بينما كنت مستلقيا في فراشي . انك طراز فريد في بابه ، لك قوانينك الخاصة بك .

ـ حسنا . انه اعتقاد لا يقدم ولا يؤخر . ماهى مشروعاتك عن مساء اليوم ؟

ـ مساء اليوم ، سأصحبك معى الى فندق ريتز ، حيث تجلسين في البهو في انتظاري ريثما أصعد لاستبدال ثيابي . وبعد ذلك ، نتناول طعام الغداء ، وفى الليل نتناول طعام العشاء وهكذا سيكون غدنا ، لكي تفسد على العم جاسئون خطته لبعد الغد

ووقفت تتطلع من النافذة ، دون أن تجيب بشيء . فاستطرد قائلا

« وان شئت ، ذهبت بك الى نوتردام ، أو الى أحد المتاحف ، أو الى برج ايفل . أو الى أى مكان آخر . أيتها المبعوثة من بلاد الاغريق هل أنت سعيدة ؟

ـ وما هى السعادة ؟

ـ الم تدركي معناها بعد ؟ ومن ذا الذي يدري حقيقة كنهها ؟ قد تكونين على حق . قد تكون في الرقص فوق خيط واه على حافة هاوية !

• • •

كانت نيليان في طريق العودة من مندبة عمها جاسئون . وكانت تستقل سيارة الفيكونت دي بايستر الى فندقها ، بعد أن أمضت أمسية مملة . وكان مدعوا الى

المادبة ستة رجال وسبع نساء . ومن بين الرجال أربعة غير متزوجين . وكانوا جميعا من أثرياء القوم وسألها الفيكونت دى بايستر ، « ولماذا اخترت الاقامة على الضفة اليسرى ؟ هل كان هذا لدواع خيالية ؟!

ـ لقد كان اختيارا عفويا .

ـ كان يجب أن تقيمي بأحد مساكن ميدان فاندوم . لدى مسكن على هذا الميدان . وهو مسكن لا أستفيد به .

ـ هل تؤجره لي ؟

ـ بكل سرور .

ـ وما هى قيمة ايجاره ؟

ـ ولم هذا الحديث المادى البحت ؟ اذا حاز المسكن اعجابك ، فهو لك .

ـ بدون أية شروط ؟

ـ بدون أية شروط . ان هذا لمن دواعي سروري . هل ترافقين على زيارة المسكن غدا ؟ وهل تقبلين دعوتي للغداء بعد ذلك ؟

ـ وهل يتسع المسكن لاكثر من واحد ؟

ـ أجل . ولماذا ؟

ـ ربما أردت أن يشركني فيه غيري .

ـ ومع ذلك ، فانى أفضل لك الاقامة بمفردك لفترة ما . أن لك في باريس بضعة أسابيع فقط . وأرى أنه من الخير لك أن تتعرفى على معالم المدينة أولا .

ـ معك الحق .

وتوقفت بهما السيارة امام الفندق . فسألها الفيكونت ، « هل اتفقنا على اللقاء غدا؟

ـ يجب أن أفكر في الامر مليا . هل يضرك في شيء أن أسأل عمى رأيه ؟

ـ لو كنت مكانك ، لما فعلت شيئا من هذا القبيل ، فقد

بسوء تأويل الامر · ومهما يكن من أمر ، فاني أعتقد أنك لن تطلبي مشورته . اسمحي لي يا آنسة ، بأن اصارحك القول : انك أمام رجل عرك الحياة ، وأنت بحاجة الى هذا الطراز من الرجال طابت ليلتك يا آنســــة

● ● ●

ارتقت الدرج الى غرفتها وهى غارقة فى خواطرها · لقد كانت مأدبة عمها تجربة جديدة لها · وكانت تشعر بما يشعر به القادم من كوكب آخر · اذ لم يتسن لها أن تفهم ما يتحدث عنه الضيوف ، أن بعض ما كانوا يتحدثون عنه باهتمام ، كان من الامور التى لا تعيرها أى اهتمام · وكان عرض الفيكونت دى بايستر ، هو الشىء الوحيد الذى شد اهتمامها فى هذه الامسية

وبادرها كليرفايت الذى كان فى انتظارها بسؤاله :

ــ هل كانت مأدبة ناجحة ؟

ــ حسبت انك جالس تعاقر الخمر فى مكان ما .

ــ لم أشعر برغبة فى ذلك . أو على الاقل لم أعد استسيغ الشراب فى غير وجودك .

ــ وهل كان من عادتك ادمان الشراب ؟

ــ فى فترات ما بين كل سباق . وقد يكون هذا هربا من ذات نفسى · ولقد أقلعت عن ذلك الآن · فقد أمضيت بعد ظهر اليوم فى سانت شابيل . وغدا سأقوم بزيارة لمتحف كلونى · لقد أعجب بك كل من رآنى فى صحبتك · هل تحبين أن نخرج معا ؟

ــ ليس الليلة !

ــ لقد أمضيت أمسيتك مع أناس يعتقدون أن الحياة ليست سوى مطبخ ، وغرفة نوم ، ولا يدركون أنها قارب شراعى متعدد الأشرعة ، قد ينقلب بهم فى أية لحظة .

انك بحاجة الى بعض التغيير ، الا تحبين أن نقوم برحلة ؟

ــ أين ؟

ــ فى كل شارع وفى كل ملهى ليلى · أن هذا البهاء وتلك الاناقة يجب أن تراهما كل باريس

ــ فليكن ما تريد ·· هلم بنا ·

وجلس كليرفايت ينتظر فى سيارته وكان المطعم المجاور للفندق قد بدأ يغلق أبوابه وسمع صوتا يقول :

ــ العاشق الولهان · الست أكبر سنا من أن تصلح لهذا الدور ؟

وكان الصوت صوت ليديا موريللى · وكانت تتقدم صديقها فى انصرافهما من المطعم · وأجابها كليرفايت :

ــ فعلا · أكبر بكثير ·

ــ انها لمهزلة ! دورك الجديد هذا مع تلك الفتاة .

ــ ان حديثك هذا ينم عما تركته هذه الفتاة من أثر فى نفسك · انها شهادة فى مصلحتها · هل أخذت بجمالها الى هذا الحد ؟

ــ جمالها ! تلك الافاقة التى تقيم بفندق من الدرجة الرابعة ولا تملك من الثياب سوى ثلاثة تتظاهر بها :

ــ ثلاثة فقط ؟ كنت أعتقد أنها ثلاثون · ليديا ، منذ متى تقومين بدور المخبر السرى لجمع المعلومات عن صغار الفتيات ؟ الم نتجاوز هذه المرحلة منذ زمن مضى ؟

ولم تجد ليديا متسعا من الوقت للاجابة والتعقيب ، اذ كان صديقها قد لحق بها ، فتأبطت ذراعه وذهبت فى طريقها ·

وبعد قليل أقبلت ليليان ، فاستقبلها قائلا :

ــ لقد سمعت للتو من بعضهم اطراء سحرك · لقد آن الاوان لتكونى من المحجبات ·

— هل طال بك الانتظار ؟

— كلا . ان فرحة اللقاء تقصر من أمده .

وانطلقا في جولتهما :

كانت الساعة الرابعة صباحا ، حينما سألتها كليرفايت :

— هل تواصل جولتنا الى مكان آخر ؟

— أجل . أم هل تراك متعبة ؟

— ليس بعد . هل سررت بهذه الجولة ؟

— كل السرور .

— حسنا . هيا بنا الى ملهى آخر .

لم يزل حي مونمارتر يضطرب بحمى ما بعد الحرب . ولو لم تكن ليليان . لما فكر كليرفايت في زيارة ملاهي هذا الحي . ان كل شيء جديد في نظرها . انها جوانب الحياة التي حرمت منها وتاقت لمشاهدتها طويلا وهذا ما يجعلها مستعدة بكل شيء . وكل هذا يضاعف من تعلقه بها ومن محبته لها . انها طراز جديد من النساء ، يرى في كل ما حوله الجمال ، ويسعد بكل ما يقع عليه بصره . ووجد انه يقول لها : اظن انني اسرفت في الشراب » .

— وكيف أدركت هذا ؟ ما هو الحد الفاصل بين الاعتدال والاسراف ؟

— هو الحد الفاصل بين المعرفة والانكار .

— ليتني أتجاوز هذا الحد الذي انكر فيه نفسي !

يالها من مخلوقة عجيبة ! انها تريد أن تمر بكل تجربة ! ان كل ما صدر عنها ينبيء عن دخيلة نفسها . انها شعرت أن أيامها في الحياة معدودة ! وهذا الادراك

هو أساس كل مشاعرها . انه كالخمر يتملك من المدمن ، وأنبري يقول لها : « أعبدك » .

فأجابته لاتكثر من هذا القول ، خشية أن يصبح لدى كالماء والنبيذ .

— ولكنني لاأستطيع ان اكبح جماح نفسي وأنا في صحبتك . ماهي وجهتنا التالية ؟

— الى الفندق لانني أريد أن انتقل منه .

— ليكن . هيا بنا لنعد حقائبك .

— انها معدة فعلا .

— الى أين تريدين الانتقال ؟

— الى فندق آخر . ان امرأة ما قد دأبت على الاتصال بي تليفونيا ، في اليومين الماضيين ، لتقول لي أن أعود من حيث أتيت — الى آخر هذا مما تردده على سمعي .

— الم تتبيني صوتها ؟

— انها تتكلم الفرنسية بلكنة أجنبية .

ودار بخلد كليرفايت انها قد تكون ليديا موريللي ، على الارجح . فقال لها :

— ولماذا لم تحدثني بذلك من قبل ؟

— ولماذا ؟ هل يمكن ان أجد بفندق ريتز غرفة خالية ؟

— يمكن .

— حسنا . ان عمي جاستون سيغمى عليه عندما يسمع عن مكان اقامتي الجديد .

• • •

قالت ليليان لكليرفايت ، وهي جالسة فوق حافة فراشها ، تستكمل معه اعداد حاجياتها :

— انني أشعر بالاسى لمغادرتي هذا الفندق . لقد كنت

أحب كل شيء فيه . غير انه من دأبي أن أحب بدون أسى . هل أدركت ما أعني ؟

ـ هذا ما أخشاه . تعنين أنك لا تأسين على شيء .

فضحكت . وارتشفت جرعة من كأس النبيذ الذي كان يردها معقبة :

ـ انني لا أنظر الى الوراء . الا ما أتركه . لا أشغل نفسي بالتفكير فيه . انه يصبح ماضيا في طوايا النسيان .

ليس من شك في أن مصيري معها سيكون كذلك ـ تهجرني كما تترك فندقها . تلكم هي ليليان من شغلتني عما عداها .

وقطعت عليه حبل استغراقه بقولها :

ـ انني جد مغرمة بك . لماذا لا أناديك باسمك ؟

ـ هذا ما لايفعله غيرك .

ـ اذن ، فسيكون هذا من أقوى الدواعي لذلك .

وعاونها كلير فايت على ارتداء معطفها . وأودع حقائبها سيارة أجرة تتبع سيارته . وسألته ، وهما في طريقهما الى الفندق :

ـ هل تطل غرفتي بالريتز على ميدان فندوم ؟

ـ أجل .

واستدار بسيارته في الميدان . وكان السكون مخيما على هذا الميدان ، في تلك الساعة المبكرة من النهار . وتوقف بسيارته أمام مدخل الفندق ، قائلا :

ـ انني جد سعيد . سعيد بأننا معا . وبعد أن تنالي قسطك من الراحة ، سنتجه جنوبا ، في طريقنا الى صقلية وتارجو فلوريو . وسنقطع المسافة على مراحل هينة .

الفصل الحادي عشر

في صقلية ، كان الربيع في أوج ازدهاره . وكان طريق تارجو فلوريو ، بأمياله السبعة والستين ، بمنحنياته التي تبلغ الألف والنصف تقريبا ، غير مصرح بالمرور فيه عدة ساعات يوميا ، لكي يتاح للمشتركين في السباق ممارسة التدريب على القيادة فيه ، والتعرف على مسالكه .

وكان ألفريد توريانى ، هو القائد المرافق لكلير فايت . وهو ايطالي يبلغ الرابعة والعشرين من عمره . وكانا يمضيان نهارهما في هذا الطريق ، ويعودان في المساء وقد نال منهما التعب ، والجوع والظمأ .

وكان كلير فايت لا يريد لليليان أن تشهد التدريب ، كما تفعل غيرها من الزوجات والصديقات . ورأى أن يقدمها الى صديق يمتلك بيتا يطل على البحر ، يمكنها أن تقضى به ساعات يومها . وهذا الصديق ليفاللي ـ هو خير من يعهد بها اليه .

وكانت ليليان ، تقضي أيامها ، بين الشاطىء وحديقة الفيلا ، التي تتناثر فيها تماثيل من الرخام في كل ركن

منها · ولم تشعر ليليان برغبة في متابعة التدريب ، وان كانت تحب سماع هدير المحركات ، وهي تنفذ خلال أشجار البرتقال ، فيتألف من حفيفها ، ومن ذاك الهدير ، ومن صوت تلاطم الامواج ، سيمفونية رائعة · وكان يخيل اليها ان هذا اللحن المؤتلف ، هو حديث كلير فايت يهمس به في اذنيها · وكان كلير فايت دائما معها حيث تكون · كان معها على الشاطىء ، وفي الحديقة ، وبين خمائلها يطالعها وجهه من خلال ما تقرأ ·

وفي المساء ، يقبل كلير فايت ، ويسمع هدير محرك سيارته عن بعد ، وتسمع من ليفاللي انه لا يحب الاصوات الصاخبة التي تعيد الى ذهنه ضوضاء قاذفات القنابل ابان الحرب · وتنعم ليليان بتلك الساعات الهانئة التي تمضيها مع الرجل الذي شاء القدر أن يضعه في طريقها ، ويخلد كلير فايت الى الراحة بعد عناء النهار ·

وقبيل السباق ، اقام ليفاللي مأدبة دعا اليها الكثيرين ، وكان الطقس دافئا في تلك الليلة التي تتلألأ سماؤها بوميض النجوم ، وتعكس مياه البحر الهادىء قرص القمر الصاعد بين ثنايا الافق · وكانت ليليان مأخوذة تشوي بكل ما حولها . وكانت تجد فيه يحيط بها ، كلما كانت تتوق اليه وتصبو ، طوال تلك السنين التي قضتها بين الجبال ·

وكان كل من كلير فايت وليفاللي جالسين بالشرفة ، يتابعان الرقص ، حينما قال الثاني للاول :

« ان الانسان اما أن يكون بين المشاهدين أو بين المشتركين في الاداء · ومن وجهة نظري ، افضل أن أكون من الشاهدين · ان من يحاول أن يكون من الفريقين في وقت واحد لا يمكن أن يتقن ايا من العملين . »

وكانت ليليان تراقص الامير فيولا · واستطرد ليفاللي قائلا : « انها اللهب المتوقد . تأمل كيف ترقص ! وتأمل غيرها من الراقصات ! ان رشاقتها وسحرها وأناقتها تبز الجميع · كيف التقيت بها ؟ »

ــ في لحظة مواتية من لحظات الزمان ·

ــ ان مثل هذه الفرص لا تسنح دائما ·

وكانت ليليان تراقص فيولا حينا وتوريللي حينا آخر · وكانت الامسية تفيض سحرا ، وبهاء وحياة · ولم تكن لتسمع غير صوت الموسيقى ، وترجيع الاقدام الزاحفة تتسق مع النغم · وهذا ما كانت تحلم به ليليان في ليالي وحدتها بين الجبال ، وهي تستمع الى الموسيقى المنبعثة من الراديو بجوار فراشها · ورأت أن الموت أبعد ما يكون عنها في مثل هذه الليلة التي تفيض حياة وجمالا · وكانت هذه الخواطر وغيرها تتردد في ذهن ليليان وهي تنتقل من ذراعي راقص الى آخر ·

وسألها فيولا عندما رآها تبتسم :

ــ ترى ماذا يجول في خاطرك ؟

ــ ان الخواطر او بعضها ، غالبا ما تكون سرا من الاسرار ·

وكانت تخطو حينئذ بالقرب من كلير فايت الذي رأته يتطلع اليها مبتسما · ودار بخلدها : انه شديد التعلق بي ، وانا أحبه لانه لا يسألني عن شيء · ترى متى سيبدأ في توجيه الاسئلة الي ؟ أرجو الا يأتي هذا اليوم · فليس لدينا من الوقت ما يتسع لشيء من هذا القبيل ·

وقالت احدى النساء من الجالسات في ركن الامهات : « تأملن فيولا . يبدو انه يعتقد انه لا توجد فتاة في هذا الحفل خلاف هذه الاجنبية ؟ » .

وتردف سيدة أخرى قائلة : « هذا بديهي ، لئن راقص احدى فتياتنا ، لعرض عليه أشقاؤها الزواج منها ، ولراوا فى ملازمته لها أنه أصبح خطيبها » .

ـ من أين قدمت ؟ انها ليست ايطالية .

ـ ان مثلها ممن يصرفن امثال فيولا عن فتياتنا .

وبعد ان فرغت ليليان من مراقصة فيولا تأبطت ذراع توريانى فى طريقها الى حيث كان يجلس كلير فايت .

ـ لماذا لا تراقصنى ؟

ـ اننى معك فى كل خطوة ، دون ان انهض من مقعدى .

وضحك توريانى معقبا :

ـ انه لا يحب الرقص ولا يجيده .

ويؤمن كلير فايت على هذا قائلا :

ـ هذا صحيح . اننى راقص فاشل . كان يجب ان تثنينى هذا ، ليلة راقصتك فى فندق بالاس .

ـ لقد انسيت أمر هذا التاريخ البعيد .

وعادت أدراجها الى حلبة الرقص فى رفقة توريانى ، وعاد ليفاللى الى متابعة خطواتها مرددا : «انها قطعة من اللهب ، أو قل خنجرا حاد الأطراف . ان لجمال المرأة صدى عكسيا فى نفسى .. بماذا تفسر ذلك ؟!

ـ لاننا ندرك أنه سيمضى ويولى مع الأيام ، ونود لو قدر له الدوام .

وجلس كل من الرجلين يشرب كأسه فى سكون وصمت ، وراحا يتطلعان الى ليليان التى كانت تراقص توريانى ، وتبتسم لكلير فايت كلما اقتربت منه .

الفصل الثانى عشر

صاح كلير فايت ، يستفسر عن وضعه فى السباق ، عندما توقف قليلا ، وقال له توريانى :

ـ السابع . كيف وجدت الطريق ؟

ـ شاق . هل رأيت ليليان ؟

ـ أجل . انها جالسة فى المنصة .

وقدم توريانى قليلا من عصير الليمون الى كلير فايت ، واقبل مدير السباق يصدر الأمر بمواصلة السير ويقول لكلير فايت :

« ان ديفال أمامك . عليك أن تلحق به وتتقدمه . لسنا نبغى أكثر من هذا أننا فى المقدمة . هيا ، الى الامام !»

واندفع كلير بسيارته ، ورأى عن بعد ، عند الافق ، الغبار الذى تثيره سيارة ديفال وراح يطوى الطريق المتعرج ، بمنحنياته الخطرة ، فى مهارة القائد المقدام المحنك ، الى ان لحق أخيرا بسيارة ديفال ، الذى تعمد ألا يفسح لكلير فايت الطريق ليتقدمه . وأخيرا انتهز كلير فايت فرصة احد المنحنيات الخطيرة ، ليمرق كالسهم بجوار سيارة ديفال ، الذى فوجىء بهذه الحركة الجريئة التى لم تكن فى حسبانه .

وانطلق كلير فايت في طريقه، متحديا كل عقبة . غير عابئ بمنحنياته التي تكاد أن تكون قائمة الزاوية . وقد أنسى كل شيء ، اللهم الا الفوز في هذا السباق .

وكان أن بلغ من سرعته ، تلك المرحلة التي يفقد فيها السائق السيطرة على سيارته . ووجد نفسه أمام منحنى ، ينحرف بعيدا احتشد عنده جمع من الناس ، وحاول بقدر ما في وسعه من حذق القائد ان ينحرف منهم . وكانت النتيجة ان استدارت به السيارة في عنف، ثم اندفعت الى الجانب الاخر من الطريق ، لتنفذ في مجموعة من الاشجار والاحجار ، وينفجر اطارها ، وتتوقف عن السير .

وعاد الجمع الذي كان قد تفرق خوفا ، وقد تصايح أفراده وتلكئوا ليروا ما انتهى اليه امر المتسابق وسيارته . وكان كل ما يعني كلير فايت في هذه اللحظة ، ألا يضع أحد منهم يده على سيارته ، والا يمد له يد المساعدة ، لان هذا من المحظورات بناء على قوانين السباق . وراح يصرفهم عنه صائحا : « ابتعدوا ! ابتعدوا ! » .

وعلى الرغم مما كان يشعر به من الام، وعلى الرغم من الدماء المنبثقة من أنفه ، فقد جاهد حتى استقام واقفا أمام سيارته ، ليحول بينهم وبين الاقتراب منها .

ووقف كل في مكانه . وتبينوا أن حالته ليست بالخطيرة . وأسرع يستبدل الاطار المنفجر ، وهو يسب ويلعن . ورأى أن في وسعه أن يستأنف القيادة بذراعه الايمن الذي لم يصب برضوض ، وأن عليه أن يواصل السير الى حيث يقف توريانى في انتظاره ليحل محله . وصاح في الجمع المحتشد ليفسح الطريق .

وعاد كلير فايت الى مقعد القيادة . واستدار بسيارته على مهل ، ومرقت بجواره أكثر من سيارة . وكان كل قائد منهم يحييه برفع ذراعه . وكان لا يفتأ يلوم نفسه على استهتاره وعدم تبصره .

• • •

وكانت ليليان جالسة في منصة النهاية . وكانت تحاول السيطرة على أعصابها مستعيدة هدوءها وعدم مبالاتها بأي شيء مهما كان من أمره . غير أن هذا كان من العسير عليها ، أمام ما يحيط بها من ضوضاء وحركة دائرة . وراحت تتابع السيارات المندفعة ، وتحاول الاستماع الى ما يعلنه المذيع من أرقام واعداد . وبدأت تألف هذه الجلبة ، وتستعيد القدرة على التفكير والتدبر . ودار بخلدها مدى ما تتعرض له حياة هؤلاء المتسابقين من مخاطر . ان الحياة ليست بالشيء الهين الذي يلقى به جانبا هكذا بكل استهتار . ان الشجاعة والاقدام شيء وعدم الخوف والاستهتار شيء آخر . ان الشجاعة ادراك للخطر ، اما عدم الخوف فهو مجرد جهل به .

وسمعت صوتا بجوارها يقول : « كلير فايت أين هو ؟ » فأصاخت السمع . أترى ماذا حدث له ؟ !! كان يجب أن يمر أمامنا منذ فترة طويلة » .

واستبد القلق بالجمهور المحتشد . ورأت ليليان توريانى يتطلع اليها ، ويومىء لها بأن تهدأ وبأن شيئا لم يحدث . وبدلا من أن يشيع هذا الطمأنينة في نفسها ، أشاع القلق والجزع . وتبادر الى ذهنها : انه قد ألم به مكروه ، وانه تعرض لحادث خطير . وجلست ساكنة لا تتحرك . وخيل اليها أن الزمن لا يتحرك .

وان الدقائق أصبحت ساعات . وأمضها الانتظار ، وشعرت بان صدرها يرزح تحت عبء ثقيل ، وأخيرا طرق سمعها صوت المذيع بطئ : « لقد تعرضت سيارة كلير فايت ، رقم ١٢ لحادث عند احد المنحنيات ولم تصلنا أنباء تفصيلية بعد . »

وتطلعت ليليان فيما حولها .. ان كل شيء كما هو . السماء بزرقتها وصفائها ، وجو الربيع بدفئه ، والناس بلهوهم واهتماماتهم - غير ان ثمة في مكان ما بقعة لا لون ولا حلاء لها . لايكف فيها كلير فايت عن الصراع : أم لعله قد توقف عنه .. وتملك منها خاطر الموت المخيف ، وكادت أنفاسها ان تتوقف اشفاقا ورهبة ، والفت نفسها في لحظة من لحظات السكون الشامل : سكون العدم . وسمعت صوت المذيع يستطرد قائلا : « ان كلير فايت بخير . اذلم تكن اصابته بالغة ، وقد تمكن من مواصلة السباق بسيارته . انه يسير في المؤخرة . »

وتأملت ليليان وجوه القوم المنتظرين . ورأت في ملامحها خليطا من مختلف المشاعر ، ما بين معجب ، وبين مستاء ، وبين من سرى عنه . ان كلير فايت لم ييأس ، ولم يثنه عن عزيمته شيء .. انه يواصل السباق ويستأنف القيادة ثانية ، على الرغم مما تعرض له .

وشعرت ليليان بمرجل الغضب يسري في جسدها . واسدل بينها وبين هؤلاء القوم اللاهين ستار من البغض والكراهية ، كرهت هؤلاء الذين يجدون متعة في مشاهدة السباق حتى الموت وكرهت كلير فايت الذي لايجد سوى لعبة الموت عملا يرتزق منه . ولاول مرة منذ مغادرتها للمصحة ، يدور بخلدها طيف فولكوف ، ثم وقع نظرها على كلير فايت قائما بسيارته ، وقد تخضب وجهه

بالدم ، ورآنه وهو ينتزع نفسه ببطء وصعوبة من سيارته .

● ● ●

وقام الميكانيكيون بفحص السيارة ، وباستبدال سائر اطاراتها . ووقف كلير فايت يقول لتوريانى :

— لولا هذا الاطار اللعين .. ان السيارة بخير .

وصاح المدير يأمر توريانى باحتلال مقعد القيادة فيها . وقفز توريانى اليها ، وسرعان ما انطلق بها . واستفسر المدير من كلير فايت عما اذا كان بذراعه كسر ، فاجابه بالنفي . واقبل الطبيب الذي قال له بعد فحصه لن تستطيع ان تواصل هذا السباق . »

وقام الطبيب بتضميد جراحه ، وتثبيت ذراعه اليسرى بالضمادات والاربطة اللاصقة . وبعد ان اطمأن المدير على حالته ، استفسر منه عما حدث ، ووقف يستمع اليه وهو يروي له كيف نجا من الموت باعجوبة .

واستدار المدير يتابع السباق ، ويرجو لتوريانى التوفيق في تعويض مافات . وسأله كلير فايت عمن لم يزل داخل السباق من فريقهم ، فعرف منه انه ويبر وانه في المكان الخامس .

ومرق توريانى كالسهم ، وهو يلوح بيده ، ثم تطويه المنحنيات . وتجدد الامل في نفس المدير ، الذي كاد ان يسجد داعيا مبتهلا . وكان توريانى في كل دورة ، يكتسب مسافة جديدة ، حتى أصبح يحتل المكان الرابع ، بعد ويبر الذي أصبح في المكان الثالث . غير انه حدث في الدورة قبل الاخيرة . أن توقفت السيارة بتوريانى ، الذي أسند رأسه الى عجلة القيادة ففقد الوعي .

وراح المدير يرغي ويزبد متسائلا عما حدث :

« ألا تستطيع مواصلة السير ؟ ماذا حدث ؟ ارفعوه من السيارة . كلير فايت ! رباه ! رباه ! الا يمكنك ان تحل محله ؟ ان السيارة بخير . . »

وسرعان ما احتل كلير فايت مقعد القيادة ، بين ابتهالات المدير وصلواته ، واعلن المذيع أن كلير فايت يعود الى السباق ، بدلا من توربياني .

وأبصرت ليليان السيارة تمرق أمامها كالسهم ، واستطاعت أن ترى كتف كلير فايت المضمد ، ورددت قائلة :

ــ « هذا الاحمق . . هذا الطفل الذي لم يشب عن الطوق . . ليس في هذا العمل شيء من الشجاعة . انه مقضي عليه لا محالة ، ان هؤلاء الاصحاء لا يعرفون شيئا عن الموت . . هذا الموت الذي كانت تلازمنا فكرته بين الجبال » .

وامتدت اليها يد تدس بين اصابعها بطاقة دعوة ، فالقت بها جانبا ونهضت تزمع الرحيل ، وكانت محط انظار الجميع ، وهبطت الدرج في طريقها الى مغادرة المنصة ، وقد استبد بها السأم .

واستغرقت مع ما يجول بذهنها من خواطر ، وفكرت في ذات نفسها مليا . انها يجب الا توزع اهتمامها بين اثنتي عشرة نافورة . انها نافورة واحدة التي يجب ان توليها اهتمامها . ان عودة مياه النافورة الى الانبثاق من جديد رمز حي لما يجب أن تكون عليه حياتها الجديدة ، انها يجب أن تبعد عن حياتها كل ما يعكر عليها صفوها .

ومضت قدما ، وكأن عبئا ثقيلا قد سقط بعيدا عن عاتقها ، وخطت بعيدا عن المنصة التي تعد نقطة تحول فاصلة في حياتها الجديدة ، وسمعت وهي تبتعد ،

تصفيق الجماهير للسيارات المقتحمة الى الخط النهائي ، وتوقفت ليليان عن متابعة سيرها ، الى أن شاهدت سيارة كلير فايت ، ثم استأنفت سيرها بخطوات متئدة ثابتة .

● ● ●

كان كلير فايت قد ازال مابوجهه من آثار الدماء ، وان كانت شفتاه لم تزل تدميان . ولحق بها قائلا :

ــ لا أستطيع تقبيلك ، هل كنت قلقة من أجلي ؟

ــ كلا . غير أنه لا ينبغي لك أن تعود لقيادة السيارات

ــ هل بلغ بي سوء القيادة هذا الحد ؟

وانبرى توربياني معقبا : « لقد كان عظيما . »

وحدجته ليليان بنظرة قاسية . واسرع كلير فايت ينقذ الموقف قائلا :

ــ لقد انتهى كل شيء . ليليان أرجو الا تفكري في هذا الامر ثانية . ان ماحدث لم يكن بالغا حد ما بدا به من خطورة .

وعادت تردد قولها :

ــ ينبغي لك الا تعود لقيادة سيارات السباق .

ــ لك ما تريدين . وسالغي العقد المبرم غدا هل يرضيك هذا ؟

وضحك توربياني قائلا : « وبعد غد تزتق ما فتق منه ! »

واقبل المدير يسأل كلير فايت : « هل ستحضر الليلة ؟ »

وأومأ كلير فايت برأسه ايجابا ، ثم اتجه الى ليليان التي رآها متجهة الوجه قائلا :

ــ ماذا دهاك ؟ الا زلت مصرة على عدم عودتي للقيادة ؟

ـ اجل ·
ـ ولماذا ؟
ـ لست ادرى كيف أبدى لك الاسباب · انه شعورى الذى يملى على هذا · لقد شعرت بالنفور مما رأيت · ومهما يكن من أمر ، فأنت وشأنك · ربما لم يكن من حقى أن أتحدث اليك صراحة بما قلت ؟
ـ ان هذا من حقك دائما وأبدا .
فضحكت قائلة : كلير غايت: انى أحبك ، ترى هل تشعر كل النساء بمثل ما شعرت به فى أعقاب السباق ؟ ،
ـ لست ادرى ، هل هذا الثوب من متجر بالنشيابا ؟
ـ لست ادرى أنا الاخرى ·

وتحسس وجهه وكتفه قائلا : ان وجهى سينتفخ الليلة . هل نذهب فى طريقنا الى فيلا ليفاللى ؟ »
ـ الن تذهب للقاء مديره ؟
ـ كلا . انه سيقيم حفلا بالفندق لمناسبة ما احرزه من فوز ·
ـ الا تحب الاحتفال بالنصر ؟
ـ ان كل نصر يهبط بعدد ما قدر لنا من انتصارات ·

وتأملته ليليان مليا ، فردد على سمعها ما سبق ان جهر به ثم أردف قائلا :

ـ اننى فى أمس الحاجة الى بعض الكمدات هذه الليلة ، والى الاضطجاع لاستمع اليك وانت تقرأين فصلا من كتاب (فى نقد العقل المحض) ·
ـ سمعا وطاعة · وبعد ذلك أريد أن نسافر الى فينيسيا ·
ـ ولماذا ؟
ـ لانها لا يوجد بها جبال ولا سيارات ·

الفصل الثالث عشر

امتدت اقامتهما فى صقلية أسبوعين آخرين · وشفى كلير فايت من رضوضه ، وطابت لهما الاقامة فى فيلا ليفاللى المطلة على البحر . وكان لدى كلير غايت فسحة من الوقت قبل السباق التالى ·

وسألها ذات يوم :

ـ هل تؤثرين البقاء هنا ؟ أم تحبين العودة ؟
ـ الى اين ؟
ـ الى باريس ، أو الى أى مكان آخر · ان الطقس هنا بدأ يميل للحرارة ·
ـ وهل انتهى فصل الربيع ؟
ـ اجل ، فى هذه البلاد · وفى وسعنا أن نتجه شمالا حيث يبدأ ربيع آخر ـ فى روما مثلا ·
ـ ومتى ينتهى الربيع هناك ؟
ـ سنواصل متابعته ، اذا ما راق لك هذا فنستأنف السير شمالا الى لومباردى والبحيرات · ومن بعد نتبعه الى سويسرا ، ثم الى ضفاف الراين ، الى أن ينتهى بنا السير الى حقول هولندا المزدهرة على مشارف البحر ·

وكأننا بهذا نوقف عجلة الزمن عن الدوران .

ـ هل سبق لك أن فعلت شيئا من هذا القبيل ؟

ـ أجل . فيما قبل الحرب .

ـ في رفقة امرأة ؟

ـ أجل ، ولكن الوضع كان مختلفا .

ـ دائما هكذا . لا تخف ، فلست بالغيورة .

ـ لكم وددت أن تكوني كذلك .

ـ وهل أغار من الماضي . أم هل تراني من الغفلة بحيث كنت أرجو أن تقول لي انني المرأة الأولى في حياتك .

ـ هل نرحل ؟

ـ ليس بعد . انني لا أريد أن أخدع نفسي بأن الزمن لا يمضي بنا قدما ، وانه قد توقف عن السير . ان هذا كان شأنه معي طوال أيام الشتاء التي لا تنتهي ، حينما كنت مقيمة في المصحة . وكنت أروح وأغدو رهينة حبسي بحدرانه الجليدية الصماء .

ـ والآن ؟

ـ انني سعيدة بدائرتي هذه كالراقص في حلبة الرقص .

وأودعت فمه قبلة ، تأكيدا لمشاعرها .

ثم تملك منها الضجر ، واستبدت بها الرغبة في الرحيل . وصارت أيام صقلية في اعتبارها شهورا . ولقد أمضتها تلك الليالي التي كانت تقضيها وحيدة . اذ كانت حريصة على الا يقضي كلير فايت الليل معها بطوله انها لم تكن تريد أن يسمع سعالها ، الذي كثيرا ما ينتابها ليلا . وان كان كلير فايت لم يدرك السبب الحقيقي ، وعزا هذا الى انه نزوة من نزواتها .

واستقلت الطائرة الى روما ، لتستقل منها أخرى الى باريس . أما كلير فايت ، فكان سيلحق بها في باريس . وقامت بجولة بين خرائب روما وآثارها . وفي اليوم التالي ، جلست الى احدى الموائد الخارجية بمقهى بطريق فينيتو . وكان من المفروض أن تستقل طائرة المساء الى باريس ، ولكنها ترددت . فقد وجدت أنها أسيرة لحالة نفسية من الانقباض الذي لا مبرر له . وكان أن قضت ليلتها في الفندق ، ولم تتوجه الى مكتب الطيران قبل صباح اليوم التالي . وبين اللوحات السياحية المعروضة بالمكتب شاهدت لوحة لفينيسيا . وجرى في خاطرها ، ما سبق أن تحدثت به الى كلير فايت عن هذا البلد . فما كان منها الا أن طلبت استبدال تذكرتها بأخرى الى فينيسيا . وبدا لها انها يجب أن تزور فينيسيا قبل أن تذهب الى باريس ، لانها تريد أن تجلو أمرا ما في ذهنها . انها لم تكن تعرف كنهه على وجه التحديد ، ولكنها كانت تشعر بانه من المتعين القيام بهذا قبل لقائها ثانية بكلير فايت . وعلمت بأن الطائرة ستغادر المطار بعد ساعتين .

وعادت الى الفندق تعد حقائبها . وكان المفروض أن يكون كلير فايت قد وصل الى باريس ، ولكنها لم ترغب في الاتصال به لتخبره بأنها ستتخلف عن الحضور . فلقد كانت تريد أن تكون في عزلة عمن تعرف ، وأن تنفرد بنفسها قبل أن يلتقيا ثانية : يلتقيان ثانية ؟ انها لتشعر بنفس ما سبق أن شعرت به وهي تغادر مخرج السباق ، بتلك الرغبة العارمة في أن تنطلق كالطير بدون أقدام ، يظل طائرا الى أن يموت اعياء ! ان هذا هو السؤال الذي يتردد في ذهنها : أينبغي لها أن تهجر كلير فايت ، وتقطع كل صلة بينهما ، أم لا ؟

هبطت بها الطائرة في ساعة متأخرة من بعد ظهر اليوم • وافردت لليليان غرفة بفندق دانيلي ، وحينما كانت تستقل المصعد في طريقها الى غرفتها ، أحاطها العامل علما بأن هذا الفندق شهد قصة غرام جورج صاند المتقدمة في السن بالشاب الفريد دي موسيه .
وأثيرت ليليان تسأل الرجل : وماذا حدث ؟ ترى مع من خانها ؟

— لم يحدث شيء من هذا القبيل • ان السيدة صاند هي التي خانته مع طبيب ايطالي • لقد كان السيد موسيه شاعرا .

وتبينت ليليان وميض السخرية في عيني الرجل ، الذي استطرد قائلا :

— وهو يفتح باب المصعد لقد هجرته على غفلة منه • هجرت السيد موسيه فجأة •

وكان لحديث الرجل انطباعاته في نفس ليليان ، وخلفت في سكون الى غرفتها • واتجهت الى نافذتها تطل منها ، وتملأ عينيها بمنظر القناة الجميل ، وقد انعكست على مياهه أضواء ليل البندقية ، وراحت تنعم النظر في كل ما يحيط بها من سحر . وكانت سعيدة لأنها في بلد لايعرفها فيه أحد ، ولا يعرف أحد أنها حطت رحالها به .

● ● ●

كان اختلاج مشاعرها بهذا الخطر مضاعفا ، وهي تمشي على غير هدى في الميدان القريب من الفندق . وانتهت بها خطواتها اخيرا ، الى مطعم صغير ، تزين جدرانه لوحات القرن الثامن عشر . وأمرت باحضار بعض الطعام والشراب الجيد • وكانت سعيدة بكل ما

حولها ، وبوحدتها • وسألت الساقي :
— أين يمكن أن أمضي هذا المساء ؟
— هذا المساء ؟ هل تحبين المسرح ؟
— هل يمكن أن أجد لي مقعدا ؟
— أجل ، فيما أعتقد •
— كيف أصل الى المسرح ؟
— يمكنك أن تستقلي الجندول • ويمكن أن تقطعي المسافة سيرا على الاقدام .

واستقلت ليليان الجندول . ووصلت في الوقت المناسب الى المسرح وكانت المسرحيـة من مسرحيات القرن الثامن عشر الهزلية . وكانت تتابع المسرحية ، على الرغم من عدم المامها بالكثير من اللغة الايطالية • وبدأت تشعر بما كان يستحوذ عليها من ضيق وانقباض في روما . أهو نتيجة للوحدة ؟ أهو الشعور بالضياع ؟

وفاجأتها احدى أزماتها الصدرية ، وحاولت أن تتغلب عليها دون جدوى • ورفعت منديلها الى فمها تتلقى به الدم المنبثق • ورأت أنه يتعين عليها أن تغادر مقعدها ، ولكنها لم تكن واثقة من استطاعتها ذلك . والتفتت الى السيدة الجالسة عن يسارها ، محاولة أن تسألها المعونة باللغة الايطالية • وأخيرا قالت لها السيدة بالانجليزية : «هل تشعرين بوعكة ؟» •

فأومأت ليليان ، برأسهـا ايجابا • ومنديلها فوق شفتيها ، محاولة أن تفهمها باشارة من يدها أنها تريد مغادرة المسرح • ورجت السيدة الشقراء زميلها ، أن يخف لاصطحاب ليليان الى الخارج — الى الهواء الطلق — ظنا منها أن ليليان قد أسرفت في الشراب .
ونهض الرجل يعاون ليليان على مغادرة مقعدها .

فقالت له هامسة الى باب الخروج فقط » .

وعندما خرجا الى النور ، وقف الرجل يحملق في ليليان ، التي وجدها شاحبة الوجه في ثوبها الابيض ، وقد انبثق الدم من بين أصابعها يتساقط على ثوبها ، فقال لها وقد استبدت الدهشة به :

ــ « ولكنك مريضة حقا . هل أصحبك الى أحد المستشفيات ؟ » .

ــ كلا . بل الى فندق دانيلي . سيارة أرجوك .

ــ سيدتي ، لايوجد بفينيسيا سيارات . لايوجد سوى الجندول . يجب أن تذهبي الى مستشفى .

ــ كلا . كلا . الى الفندق أرجوك أن تودعني أحد القوارب وتعود من حيث أتيت .

ــ في وسع ماري أن تنتظر . انها لا تفهم كلمة من اللغة الايطالية ؛ علاوة على أن المسرحية مملة .

وأسرع يستقل معها قارب الجندول الذي كان قد اقترب منهما ، قائلا : « سنصل الى الفندق بعد لحظة . ام هل تفضلين أن نستقل قاربا بخاريا ؟ » .

ــ كلا . فمن الخير لي الا اتحرك كثيرا ..

وكانت مستلقية فوق المقاعد الخلفية . وراحت تتطلع الى المباني القائمة على ضفاف القناة والى نوافذها المضيئة ، والى تلك الرقعة الصغيرة من السماء ، وهي تستمع الى لحن «سانتا لوتشيا» ينشده صاحب الصوت الجهير لفريق من السياح . وكان يختلط بكل هذا ، خرير المياه المتلاطمة بجدار الجندول . وتساءلت فيما بينها وبين نفسها : ترى هل هذا هو دنو الأجل ؟ هل حانت ساعتي ؟ .

وعاونها الرجل في الخروج من الجندول . ثم مد اليها

ذراعه لتستند عليه الى بهو الفندق . وكانت قد همست للحارس عند تخطيها باب الفندق ، أن يأتيها بطبيب . ولم يكن جالسا بالبهو سوى جماعة من الامريكيين ، راحوا يحملقون النظر فيها ، ورأت بينهم وجها مألوفا لديها ، وان كانت لم تستطع ان تتبين من عساه أن يكون . وقال لها ماريو ، وهو اسم الرجل الذي نادته به سيدة المسرح الشقراء وهما في المصعد : « ارجوك أن تلزمي الهدوء ريثما يحضر الطبيب » .

● ● ●

ولم تغادر فراشها اسبوعا . وأمر الطبيب بضرورة فتح نوافذ غرفتها ليل نهار ــ فقد كان الطقس مائلا الى الدفء ــ وآثرت الا تتصل بكلير فايت لتنبئه بمرضها ، لانها لم تكن تريد أن يعلم انها مريضة ، كما لم تكن تريدان تراه جالسا الى جانب فراشها . ان مرضها شأن من شئونها الخاصة ؛ لا يجب أن يعني غيرها . وكان الطبيب يعودها من آن لآخر ، وكذلك ماريو . وقد علمت من الطبيب ان النزيف لم يكن من النوع الحاد . أما ماريو ، فكان يحمل اليها باقات من الزهر ، ويجلس ليحدثها عن ظروف حياته القاسية التي تضطره لمعاشرة من هن أكبر منه سنا من النساء الثريات . وكاشفها بدخيلة نفسه قائلا : « ثمة تشابه بين حال كل منا . ان الموت هو رفيق أيامك التي تريدها تولي وتمضي . أما انا فرفيق هاته النسوة اللاتي تمضي أيامهن شيخوخة يرتعدن منها فرقا » .

وكانت ليليان تصغي في دهشة لما تسمع . فقالت :

— ، أن الموت رفيقنا جميعا غير أن غالبية الناس لا يدركون ذلك .. ترى ماذا أعددت للمستقبل ؟ أتعتزم الزواج من احدى تسائك المتقدمات فى السن » .

— كلا . أننى أدخر بعض النقود للمستقبل ، لابد بها مشروعا . ربما كان مطعما صغيرا . ولى خطيبة فى بادوا تتقن اعداد شتى الوان الطعام . هل تؤمين يوما مطعمنا ؟

أرجو أن يتاح لى ذلك .

●●●

كان هذا الوجه الذى رأته فى بهو الفندق ليلة مرضها . هو وجه الفيكونت دى بايستر . الذى تعرف عليها ، وبدا يبعث اليها ببطاقات من الزهور مجهولة المصدر ، وبعد أسبوع أرفق بطاقته . واستفسر منها بعد أن اتصلت به تليفونيا ، عن سبب وجودها بالفندق . فتجابه :

— لاننى أحب الاقامة بالفنادق . ترى هل تحب أن أنتقل الى أحد المستشفيات ؟

— كلا ، بكل تأكيد . أن المستشفيات أعدت لاجراء الجراحات فقط ، وأننى أبغض المستشفيات بقدر بغضك لها . ولكن منزلا تحيط به حديقة ، كمنزلك فى باريس ؟

— لن يكون من العسير الاهتداء الى مسكن من هذا القبيل ! ! ومهما يكن من أمر ، فلدى هنا منزل .. انه تحت أمرك .

— انى لا أحب أن يكون لى منزل استقر به . هل تدعوننى الى تناول الطعام بالخارج ؟

— وهل فى امكانك مغادرة غرفتك ؟

— سنخاطر بذلك .

وهبطت الى بهو الفندق . انها لترى أن نجاتها من الموت ، بمثابة مولد جديد لها ، وكانت تبتسم عند لقائها بدى بايستر ، الذى قال لها :

— لعلك مسرورة من مخالفتك لامر الطبيب .

— دعنا من هذا . أين ستذهب بى ؟

— الى التافرنا .. فلنستقل هذا القارب .

ومضى الجندول بهما ، ينساب فى هدوء يتسق مع ما كان يجول فى خاطرها . وقالت ليليان :

— أننى لم أعرف من فينيسيا سوى مشاهدته غيها من نافذة غرفتى ، ومن الساعات القليلة فى أمسيتى الاولى بها .

— أننى ازور فينيسيا طوال ثلاثين عاما .

— أين يا ترى توجد التافرنا ؟

— بالقرب من المسرح .

— وهل بها شرفة ؟

— أجل . هل زرتها من قبل ؟

— شاهدتها عن كثب فقط ، دون أن اكون من العملاء .

— انها مطعم ممتاز .

— أننى اشعر بالجوع فعلا .

وقام المدير شخصيا على خدمتهما . وحمل اليهما اجود الوان الطعام واصناف النبيذ . وبادرها دى بايستر بسؤاله :

— « ما الذى اتى بك الى هنا ؟ » .

احدى نزواتى . ولكننى سأقفل راجعة .

— الى باريس ؟

— الى باريس .

— حيث يوجد كليرفايت ؟

— اذن فانت تعرف ذلك ؟ الى كليرفايت !

— الا يمكن ان تتخلى عنه لفترة ما ؟

فضحكت قائلة : « اراك شديد الالحاح . هل تتقدم الى بعرض ؟

— اذا وافقت . وهو عرض بدون شروط .

— ان هذه الصورة من عرضك هى فى نظرى تكرار لغيرها . ان حياتى لا تتسع للتكرار .

— الا تشعرين بانه ينقص حياتك ، المخاطرة ، او المفاجأة ، او اى شيء جديد عليك ؟

— كان هذا هو شعورى من قبل . غير اننى لم اعد المس منه شيئا .

— منذ متى ؟

— منذ بضعة ايام .

— ولماذا ؟ واين ؟

— فى نافذة غرفتى بالفندق : اجتاحنى شعور جديد بان الحياة تواتر متشابهة . لا فرق فى ذلك بين مدينة واخرى ولا بين رجل وآخر . لقد ادركت ان اوهامى كانت باطل الاباطيل .

— متى ستسافرين ؟ غدا ؟

— اجل .

— اسفى على ما صرت اليه .

ولكنه لم يذهب . . كان يشعر بانه قد غاض به . كما كان يشعر بانه لايفتقد ليليان فحسب ، بل يفتقد شيئا فى ذات نفسه . وتبادر الى ذهنه انه تأثر الى حد ما بمنهج تفكيرها فى الحياة ، بدون ان يشعر . منهج الحياة بدون غد . ولكن هذا المنهج ليس بالسليم . فثمة غد ، على الاقل بالنسبة له .

لقد تركتنى مع الغضب ، وخلفت لى الشجن . لقد اعادتنى عشرين عاما الى الوراء ، ولكننى اصبحت اكثر ترفا . لقد كنت اجد فى صحبتى لامرأة من طراز ليديا متعة . اما الان فقد اصبحت اشعر بما يشعر به شارب النبيذ الردىء . . ينبغى لى أن أتزوج من ليليان . هذا ما كانت تعنيه ليديا . وهى على حق فى ذلك . انه لم يعد يتخيل لنفسه حياة بدون ليليان .

واقلع عن مواصلة البحث عنها . فان هى عادت الى باريس ، فاما أن تسعى اليه ، واما الا تحاول ذلك . ولم يطرأ على باله انها عادت فعلا الى فندق بيسون . وقد اقامت به عدة ايام ، الى ان تستعيد صحتها . وبعد ان استقر بها المقام ، وقضت فترة الاستجمام ، فكرت فى الاتصال بعمها جاستون ، الذى دهش لمرآها قائلا :

— واين تقيمين الان ؟

— لقد عدت الى فندق بيسون . انه لا يكلفنى كثيرا .

— انك تعتقدين أن النقود تتكاثر بين عشية وضحاها . لئن انتهجت فى حياتك اسلوبك الاول ، فلن يتبقى لك الكثير منها . ان الناس يجب ان يعولوا فى حياتهم على ما يفعله رأس المال من فوائد فقط . فى وسعى أن أفرد لك غرفة فى مسكنى .

وكانت تعرف انها مهما انفقت ، فلن تطول بها الحياة

شاسع بين الغيرة والشقاء .

ـ حقا ؟

ـ اجل · انني اعرف ، اما انت فلا · الا تدعوني لتناول طعام العشاء ؟

واصطحبها كلير فايت الى احد المطاعم ، واثنـــاء المساء، تجمعت مشاعره بالنسبة ليليان، فيما يشعر به الرجل المطعون قبل ان يتمكن من توجيه الطعنة · وقست ليديا الموضوع لتحصلين من مشاعره بقولها له اخيرا :

ـ ينبغي لك ان تفكر في الزواج ·

ـ ممن ؟

ـ لست ادري . غير انني ارى انه قد آن الاوان .

ـ منك ؟

ـ لا اريد لك هذا . ومع ذلك ، فلست بالرجل الكفؤ مثاليا لي . ليكن زواجك من سيدة ثرية . ثمة الكثيرات من هذا الطراز . انك لن تستطيع ان تعول في معاشك على السباق . لقد تجاوزت سن الشباب .

ـ هذا هو ما ادركه تمام الادارك ·

ـ لا تبتئس . هذا هو مصيرنا جميعا . وعلينا ان نعد العدة للمستقبل قبل فوات الاوان .

ـ هل انتهيت الى الرأي بمن أتزوج ؟

ـ سنبحث الامر فيما بعد ·

ـ ليديا ، لقد تعارفنا منذ اربع سنوات · وكانت هذه المعرفة على اساس ان اياما لا يريد تحمل اية مسئولية !

ـ ولقد وجدنا ان هذا يناسب كلينا . اليس كذلك يا كلير فايت ؟ ستكون في انتظارك الليلة .

● ● ●

الفصل الرابع عشر

بحث كلير فايت في باريس طويلا ، الى ان انتهى به بحثه الى الرأي بانها عادت ادراجها الى المصحة · واتصل تليفونيا بالمصحة فتبين انه كان مخطئا في رأيه . ثم عاد ليواصل بحثه عبثا، وانتهى به الامر الى انها قد تعمدت هجرانه · وكان من بين من لجأ اليهم في بحثه العم جاستون الذى كان يجهل عنها كل شيء . وحاول كلير فايت أن يبعدها عن ذاكرته وينسي أمرها ، ولكن محاولته هذه كانت اشبه بمن يحاول السير على الماء .

وبعد اسبوع من عودته . التقى مصـــادفة بليديا موريللي التى سألته : « هل تخلى عنك عصفورك ؟ » ·

ـ لم يسبق لك ان وجهت الى سؤالا عن غيرها من النساء · لابد وانها كانت غصة في حلقك ·

ـ هل هجرتك ؟

ـ هجرتني ! ياله من تعبير سخيف !

ـ اذن ، فقد وقعت في شباك الحب أخيرا ؟

ـ هل تشعرين بالغيرة ؟

ـ انني اشعر بالغيرة ، ولكنك لست سعيدا · وثمة فرق

حتى يتضب معين نقودها . ورفعت عينيها الى عمها تسأله :

ــ كم بلغت من عمرك ؟

ــ أو عودة الى مثل هذا السؤال ؟ انه سؤال لا يجب أن يوجه لكبار السن · ان الأعمار بيد الله ·

ــ أن بيده مصير كل شيء · وهو وحده القادر على الاجابة على اسئلة الكثيرين . وبودي لو استطعت الى ذلك سبيلا ·

ــ ماذا ؟ ماذا تقولين ؟

ــ لا شيء .

وآثرت ليليان ان تطبق شفتيها · أن هذا الرجل الطاعن في السن ، والذى تجاوز الثمانين يامل في أن يمتد به العمر الى اكثر مما تبقى لها من أعوام . لقد اتاح له طول العمر ان يعرف عن الحياة أكثر مما تعرف ؛ وان يكون أكثر صلة بربه ، عن طريق المعرفة والادراك ·

ووجدت انها توجه اليه هذا السؤال :

ــ عماه ! اذا ما قدر لك ان تبدأ حياتك من جديد ، فهل تنتهج فيها أسلوبا مختلفا ؟

ــ بكل تأكيد !

ــ أي سبيل كنت تسلك ؟

ــ ما كنت لاتعرض لنتائج التضخم ، ولكنت اشتريت من السندات الامريكية ··

فقاطعته بحركة من يدها ، قائلة في ضجر :

ــ كفاني هذا الايضاح ·

●●●

وخرجت تمشي في الطريق المبتلة · فقد أمطرت السماء

بينما كانت في زيارة عمها . ثم عادت الشمس لتنفذ بأشعتها من بين السحب المتناثرة كقطع من القطن المندوف · وتأملت السماء ، وعادت بخاطرها الى ما كان بينها وبين عمها من حديث . انها ترى يد الله في كل ما حولها من مظاهر الحياة · آه لو عرف الناس ذلك ؛ بدلا من أن يدفنوا رؤوسهم في الرمال كالنعام . لقد ألهت الحياة الناس عن التفكير في مصيرهم المحتوم ، وفي الحياة الابدية وما عرفوا في حياتهم الا ان يعبدوا المال والقوة · أما في الصحة ، فقد كان الامر مختلفا · انكل من كان بها من النزلاء ، يتجاهلون هذا المصير ، الذى كان ماثلا امامهم مثول الشمس في كبد السماء .

ووصلت الى الفندق · وكانت غرفتها بالطابق الاول اسوة بالسابقة · وارتقت الدرج على مهل · وفي غرفتها جلست بجوار النافذة ، وأسندت رأسها الى زجاجها وكانت زجاجة النبيذ الى جانبها فوق المنضدة . واسترخت في هدوء ؛ وحلت ما بينها وبين التفكير فيما يعكر عليها صفو وحدتها ، في هذه اللحظات الهانئة المختلسة من لحظات الحياة الصاخبة . وهكذا حدث أن رآها كلير فايت ، وهو فاقد الامل في لقائها ، حينما عن له أن يمر بفندق بيسون مرة أخرى . وصعد الدرج ، وركض الى غرفتها يدفع الباب قائلا :

ــ ليليان ! بربك أين كنت ؟

وكانت قد رأته يعبر الطريق ؛ فلم تدهش لقدومه · واجابته قائلة : « في فينيسيا » .

ــ ولماذا ؟

ــ لقد حدثت حينما كنا في صقلية برغبتي هذه · وقد عادت الفكرة فاختمرت في ذهني حينما كنت في روما ·

واغلق الباب قائلا : « لماذا لم تتصلي بي تليفونيا ؟ هل أقمت هناك كثيرا ؟ ؟

ـ هل هو استجواب ؟

ـ لقد بحثت عنك في كل مكان . مع من كنت ؟ لقد افتقدتك كثيرا ! لقد دار بخلدي شتى الفكر والتكهنات .

ـ هل لك في كأس من النبيذ ؟

ـ ابتعدي عن النافذة ، حتى يتيسر لي أن أضمك بين ذراعي .

ـ هل أتيت مستقلا سيارتك ؟

ـ كلا . لقد تركتها بميدان فاندوم .

ـ هيا ، فلنسرع بالعودة بها . اريد ان اقوم بجولة في غابة بولونيا .

ـ هيا معا ، خشية أن أعود فلا أجدك في انتظاري ، وأعود لافتقدك ثانية .

ـ هل افتقدتني حقا ؟

ـ من حين لآخر . مع من كنت في فينيسيا ؟

ـ كنت بمفردي .

ـ لماذا لم تتصلي بي ؟

ـ ليس من دأبنا أن نفعل ذلك . هل ستذهب الى شاطىء البحر ثانية ؟

ـ أجل . الى مونت كارلو ، حيث يجري سباق في الصيف .

ـ الا يمكن أن تذهب قبل ذلك ؟

ـ متى شئت . اليوم ؟ غدا ؟

ـ كلا . فيما بعد . ان اقامتي لم تطل بفينيسيا .

ـ ولماذا ؟

ـ أصبت بنزلة برد .

وبدا انه لم يصدقها . واخذها بين ذراعيه قائلا :

ـ متى سترحلين عني ثانية ؟

ـ هيا بنا الى حيث توجد سيارتك .

واحتضنها كلير فايت ، يشبعها قبلا .

ـ ولا أنا. ولكننى اقوم أحيانا بأشياء لم تكن تخطر لى على بال . ومن هذا ، رغبتى فى الزواج منك .

ـ لماذا تتعجل الامور ؟ كرغبتك الملحة فى الزواج وأن تصبح تاجر سيارات ؟

ـ كأنك ترين فى مشروعى كارثة محققة .

ـ وأين تزمع افتتاح متجرك ؟

ـ فى تولوز .

ـ متى سيكون ذلك على وجه التحديد ؟

ـ بعد بضعة أشهر .. فى الشتاء ، على الاكثر فى نهاية العام . اننى لم أعد فى سن تصلح لمزاولة مهنة السباق . وأرى أنه لابد لى من الاستقرار .

لماذا يصر هؤلاء الرجال على تغيير حياتهم ؟

لماذا يصرون على الالقاء جانبا بالشىء الوحيد الذى كان له أثره فى نفس من يتعلق بحبهم ؟

اننى لم أحب كلير فايت هذا ، الا لانه كان على شاكلتى لا مستقبل له . وأخيرا انبرت تقول :

ـ لطالما تردد فى ذهنى ، التساؤل عما اذا كان ينبغى لكلينا الاقدام على الزواج . ولم أجد من الاسباب ما اقتنع به . وهذا طبعا بعد استعراض وضعى وحالتى .

ـ ليليان ، لماذا تصرين دائما على مثل هذا النمط من التفكير ؟ لماذا تحرصين على عدم الارتباط بى ؟

ـ الا تدرك السبب ؟ لقد كان لقاؤنا صدفة ـ لماذا لاندع الامور تسير بيننا فى هذا الاطار ؟

ـ اننى أريد أن أربط حياتى بحياتك . ان الامر فى غاية البساطة ، أليس كذلك ؟

ـ كلا . انه ليس بهذه البساطة .

ـ فلنقل اننى أريد أن ..

الفصل الخامس عشر

قالت ليليان ضاحكة : « أو قل انك تريد سجنى ».

ولم يضحك كلير فايت ، بل قال لها جادا :

« لست أريد سجنك . اننى أريد الزواج منك » .

ـ ولماذا ؟

ـ لكى لا تعودين الى الاختفاء دون أن أجد لك أثرا .

ـ أو تؤمن بأن الزواج هو خير ضمان لذلك ؟

ـ هو خير رباط لاثنين . ثم انك لاتملكين الكثير، ولا تريدين أن تستأثرى .

ـ وهل لديك مزيد ؟

ـ سيكون لدى نصيبى من سباقين مقبلين . وما زال لدى الكثير .

ـ فلترجىء عرضك الى السنة القادمة .

ـ وفيم الانتظار ؟

ـ لترى أنه عرض غير ذى موضوع . ثم انك لا قبل لك بتتقانى . لقد قلت ان عقدك سينتهى هذه السنة .

ـ لقد عرضوا على توكيلا لسيارات السباق .

ـ هذا ما لا أستطيع تخيله .

— أن تستقر في حياتك ؟

— وهل في ذلك ضير ؟ كما انني أرى أن الزواج منك من دعائم هذا الاستقرار . هل في هذا ما يضحك ؟

— بل ان فيه ما يبكي .

وكانت عيناها مغرورقتين بالدموع . فنهض يأخذ يديها بين يديه قائلا :

— أليس كذلك ؟ ان هذا لا يجب أن يحدث بيننا .

— دع الامر بيننا على ما هو عليه .. لا تفسد الامور .

— هل ترين ذلك ؟

ورددت فيما بينها وبين نفسها قولها :

— أجل . انك ستفسد كل شيء . انك لن تستطيع أن تبني سعادتك المنزلية في تولوز فوق أجنحة فراش رقيقة هشة . ما أشد ما تعمي الانانية الناس ! كيف لايتسنى له أن يتبين وجهة نظري ؟

ولم تجد بدا من أن تقول له :

— كلير فايت ! أو نسيت انني مريضة ؟

— ان هذا من أقوى الدواعي المؤيدة لعرضي .

وآثرت الا تعقب بشيء . فبادرت تسأله :

— متى سنذهب الى الريفييرا ؟

— عندما تشائين .

— فلنعجل بهذا .

— ان لي منزلا بالريفييرا .

— حينما نعود الى فندقك ، أبعث الى بحقائبي التي سبق أن تركتها به قبل سفري .

— سآتيك بها .

وجلست الى منضدة زينتها ، تتأمل صورتها في المرآة ، وتستعيد ما كان بينها وبين كلير فايت من

حديث . . يا لتلك الرغبة في التملك التي تستبد بالرجال ، الزواج منها ، والاستقرار في تولوز !

وبدأت تضحك . . انها لم تكن تريد أن تتحدث عن مرضها أن تذكره به . ان كلير فايت قد أصبح في نظرها رجلا آخر . . انه لم يعد يعيش في دنيا من الضياع . لقد أصبح رجلا له مستقبل . ثم بدأت تبكي في هدوء المستسلم .

●●●

وعاد كلير فايت بحقائبها قائلا :

— كيف استطعت أن تسافري بدونها ؟

— لقد ابتعت غيرها . أين نذهب هذا المساء ؟ الى الغابة ثانية ؟

— على أن نرتدي معاطفنا .

— متى سترحل ثانية ؟

— وأنى لك هذه المعلومات ؟ هل تتابعين توقيت السباق ، ومهما يكن من أمر ، فلن يرحل أحدنا دون الآخر .

— لن يكون هذا قبل نهاية العالم !

— يمكن أن يتم الزواج بيننا قبل هذا .

— دعنا أولا نحتفل بلقائنا ثانية . الى أين يتعين عليك السفر ؟

— الى روما . ومن بعد الى سباق الألف ميل عبر ايطاليا . لقد تحدد له الاسبوع القادم . ما أظنك تستطيعين مصاحبتي .

— هل ستفوز بهذا السباق ؟

— انه سباق الايطاليين . ولم يشذ عن هذا سوى كاراكيولا بسيارته المرسيدس . اننا ندخل هذا السباق

كفريق من الدرجة الثالثة . فقد يحدث ما ليس في الحسبان . هل أبقى ريثما ترتدين ثيابك ؟

ـ أي ثوب تفضل ؟

ـ أن كل ثيابك تزيدك جمالا وسحرا . أن طيفك لم يبرح مخيلتي طوال غيابك عني . لقد انطبعت صورتك في وجداني وفي ذهني ، بحيث لم تترك مجالا لغيرها . لقد قضيت الليالي الطوال منطويا على نفسي عازفا عن اللهو والمسرات .

ـ هل لديك مزيد من النبيذ ؟

وقدم اليها كلير فايت كأسا ، مشفوعا بقبلة منه ، وطوقت عنقه بذراعها قائلة :

ـ أن الحياة عصير أوله حلو وآخره مر . ومهما فعلنا فلن نستطيع حيال هذا شيئا .

ـ كيف اتيحت لك كل هذه المعرفة ؟

ـ اني اردد كل ما يجول في خاطري ـ هذا كل ما في الامر .

ـ وماذا تعرفين عن الحب ؟

ـ لا شيء . لا شيء أكثر من عرض من عوارض الحياة .

ـ كلا . لقد جانبك التوفيق في حكمك هذا . ان الحب هو الحقيقة الكبرى التي تنسينا أنفسنا ، وتنسينا الكثير من حقائق الحياة المفجعة .. انه ينسينا الموت .

وضحكت ليليان وهي ترتدي ثوبها . واستطرد كلير فايت قائلا : «اتعرفين ماذا اريد بعد أن التقيت بك ؟ اريد أن أعيش حياتي مضاعفة » .

وكانا يقفان بجوار النافذة . فانبرت تقول له :

ـ أما أنا ، فأريد لنفسي حياة مزاجها يوم من سن

الخمسين ، وآخر من سن الثلاثين ، وثالث من سن الثمانين ، كما أبغي وأريد ـ لا أن تكون أياما متلاحقة على مر الزمن ، كما أرادها لنا الزمن وفرضها على البشر .

وضحك كلير فايت قائلا ، « لا أكاد أن أدرك شيئا مما تقولين أحيانا . هيا بنا » .

وهبطا درج الفندق . ورددت ليليان في ذهنها ما قاله لها .. انه لايفهمني . انه لايدرك انني أريد أن أعيش من المستقبل أياما أعرف انه لن يقدر لي العيش فيها ، وأن الحياة لن تمتد بي لأصبح امرأة في الثلاثين .

•••

وعادا ادراجهما الى الفندق بعد ساعتين . وقال لها عند باب الفندق ، « أنت بحاجة ماسة الى النوم » .

ـ النوم ؟

ـ الى الراحة . لقد قلت لي أنك كنت مريضة .

ـ وهل تراني متعبة ؟

ـ كلا . ولكنني أفضل لك الراحة اليوم . اخلدي الى النوم ، وان كان يعز علي أن أحرم صحبتك لبضع ساعات .

ـ طابت ليلتك .

وتبين من تحيتها انها غير مقتنعة بما قال . فترك سيارته ولحق بها قائلا : « سأصحبك الى غرفتك » .

ـ كلا . خير لك أن تخلد الى الراحة استعدادا للسباق .

فحدق كلير فايت فيها دهشا . وخلى ما بينه وبين ذراعها . وعادت تحييه تحية المساء ، وواصلت طريقها

ترتقي الدرج ووقف يتابعها بعينيه من حيث هو الى ان اختفت عن ناظريه . ثم مضى في طريقه الى مطعم بيريجوردين، حيث وقف يشاهد في الخارج عملاءه وهم ينصرفون . وآثر ان يقوم بجولة يفرغ فيها لخواطره والتفكير مليا في كل ما سمعه منها الليلة .

وكانت نوافذ غرفة ليليان مضاءة ، وان كانت ستائرها مسدلة . واستطاع كلير غايت أن يرى من مكانه حيث كانت قدماه، ظل ليليان يتحرك في الغرفة جيئة وذهابا. وكان يشعر بأنه ضايقها بمسلكه الذي كان لابد له منه . انه كان يستهدف راحتها، ويعني ماقاله لها فعلا . لقد كانت ليليان متعبة فعلا وقد اكتسى وجهها بامارات الارهاق والذبول .. ترى ماذا تفعل الان ، وكيف سيكون تصرفها ؟ وتبادر الى ذهنه انها يجب ان تعلم بأمر وجوده وعودته . فأسرع يعبر الطريق ، ليعود بسيارته ، التي عمد الا أن يسمعها صوت محركها ، ثم انطلق بها الى ميدان الكونكورد .

سمعت ليليان صوت محرك سيارة كليرغايت وهي تبتعد . فنهضت ترتدي معطفا واقيا من المطر ، لانها لم تشعر برغبة في استبدال ثوب السهرة الذي كانت لم تخلعه بعد . لقد كانت أبعد ما تكون عن الرغبة في ان تاوي الى فراشها .. حسبها ما نالته من راحة في المصحة .

وهبطت الدرج على مهل ، ثم خرجت الى الطريق بخطوات متئدة . وسارت بها قدماها الى طريق سانت ميشيل دون أن تلتقي بأحد . وما ان صارت في هذا الشارع حتى تقدم منها الكثيرون يعرضون عليها صحبتهم . ورأت أن تتخذ لها مقعدا في احد المقاهي

الخارجية . وكانت محط أنظار الرائحات والغاديات من نساء الارصفة المحترفات . وراحت تتطلع فيما حولها ، تمعن النظر في اناس هذا العالم الذي له طابعه الخاص، والذي قل ما يحل فيه . انه عالم المجون واللهو الرخيص .

●●●

بعد أن جلس كلير غايت بحانة الفندق لفترة ما ، رأى أن يتصل بليليان تليفونيا . وأجابه الحارس الليلي بأنها غير موجودة ، وأنها غادرت الفندق منذ نصف ساعة .

ــ وهل حملت معها شيئا من حقائبها ؟

ــ كلا ، ياسيدي. لقد انصرفت مرتدية معطفا واقيا من المطر .

ــ حسنا . وشكرا .

معطف واق من المطر . ترى ماذا تعتزم؟ او تعتزم العودة الى المصحة والى صديقها بوريس فولكوف ؟

وأسرع الى سيارته يستقلها . كان على ألا اتركها . ترى ماذا دهاني ؟ ماذا فعل الحب بي .. ؟ أو يفقد الرجل اتزانه حينما يتدله في الحب . لقد وضعت صحتها نصب عيني . فهل ساءها مني هذا ؟

واستفسر من الحارس الليلي عن الطريق الذي اتجهت فيه . وعلم منه انها خرجت سيرا على الاقدام في عكس اتجاه نهر السين . وقاد كلير غايت سيارته على مهل بطول طريق سانت ميشيل . وسمعت ليليان صوت محرك سيارته عن بعد ، ثم شاهدت السيارة مقبلة . وبعد أن وصلت السيارة الى الطرف الآخر من الطريق ، عادت ادراجها . وشاهدت كليرغايت يمعن النظر في المارة بحثا

عنها . وبعد قليل توقف بسيارته ، وتركها ليواصل بحثه سيرا على الاقدام . واقبل بخطوحثيثا ، وسمعت صوته من الخلف يأمر الساقي بكأسين من البيرنو . وقال وهو يتخذ له مقعدا بجوارها :

ــ انها جلسة ممتعة . لماذا لم تكن تترددد على هذا المقهى ؟

ــ يسرني قدومك . لم استطع أن آوى الى فراشي ، ولو كنت أخلدت الى النوم ، لما شاهدت اليوم معا كان جديدا على في كل شيء . انه عالم متناقض من الاضواء ومن الظلام .

ــ ولكنك تحملين نفسك أكثر من طاقتها .

ــ لم يئن الاوان بعد لتطبيق قواعد الحكمة .

ــ أرجو ألا تغضبي مني . انني أضع صحتك فوق كل اعتبار .

واخذ بيدها يطبع قبلة عليها .

الفصل السادس عشر

بعد أن فرغت ليليان من انتقاء ما راق لها من ثياب سألت القائمة على شئون البيع بمتجر أزياء بالشباجا :

ــ ومتى يمكنني استلامها ؟

ــ بعد أسبوعين . وسنبدأ العمل فورا باذلين أقصى ما في وسعنا .

وخرجت الى طريق جورج الخامس . وراحت تستعرض في ذهنها الكثير من أحداث حياتها . وابتسمت ابتسامة الرضا ، عندما بلغ بها التفكير الى اقدامها على مغادرة المصحة واقبالها على الحياة تغترف منها ما كانت تصبو اليه ، وتعوض منها ما فاتها . انها لم تشأ أن تترك للقدر أن يفاجئها بمصيرها ، بل سبقته واختلست منه أيامها التي تعيشها الان .

ووجدت نفسها وجها لوجه أمام الفيكونت دي بايستر ، عندما استدار الى الشانزليزيه . وفوجيء دي بايستر بهذا اللقاء غير المتوقع ، وقال لها :

ــ أراك سعيدة . هل هي حالة حب جديد ؟

ــ أجل . حب لثوب جديد .

ـ انه حب سليم خال من الاحزان والقلق .

ـ وهل يمكن ان يستكمل الحب كيانه ، بدون هذه المناصر ؟ ما أظنه الا فاقدا خصائصه ؟

ـ هل تقبلين دعوتي الى كأس من الكوكتيل بهذه الشرفة ؟

ـ حسبي قدحا من القهوة .

وجلسا الى مائدة بشرفة مطعم موكيه . وسألها دي بايستر ، « هل لازلت تقيمين بهذا الفندق الصغير على ضفاف السين ؟

ـ أجل . وان كنت لا ادري أحيانا أين أقيم .

ـ ان لك احيانا اسلوبا من التفكير .

ـ انها أحلام اليقظة كما يقولون .

اقبل الساقي بكأس من الشيري لدي بايستر ، ويقدح من القهوة لليليان . وسألها دي بايستر :

ـ هل لك في شيء تاكلينه ؟

ـ كلا . كم الساعة الآن ؟

ـ حوالي الخامسة .

ثم التفتت ليليان الى كبير السقاة تسأله :

ـ مسيو لامبرت ، ألم تسمع بعد شيئا عن السباق . . ؟

ـ سمعت اذاعة روما . سيبدأ السباق بعد بضع دقائق . كلير فايت يتولى قيادة السيارة ، ويساعده في ذلك توريانى . هل تحبين الاستماع الى الاذاعة . لقد أحضرت معي جهازا صغيرا .

ـ كم اتوق لمتابعة اذاعة السباق .

وسألها دي بايستر : « هل لكلير فايت في روما ؟ »

ـ كلا . في بريسكيا .

ـ لا المام لي بشيء عن السباق . هل هو سباق خطير ؟

ـ انه سباق الالف ميل .

وعاد كبير السقاة بجهازه تمثلا . « لقد بدأ السباق فعلا . انه سباق بالغ الاهمية » .

ومن محطة اذاعة ميلانو . بدأ المذياع يعلن تحرك السيارات من نقطة البداية . ويصف ازدحام الجماهير التي اقبلت من كل حدب وصوب لمشاهدة هذا السباق الكبير . وانبرى دي بايستر يستفسر .

ـ ما هو عدد السيارات المشتركة في السباق ؟

ـ حوالي الخمسمائة .

ـ يا الهي ! وما هي المسافة ؟

ـ الف ميل . تقطعها السيارة في المتوسط من خمس عشرة الى ست عشرة ساعة . وجدير بالذكر ان الامطار تتساقط في ايطاليا .

وانتهت الاذاعة ، وعاد رئيس السقاة بجهازه . واضطجعت ليليان في مقعدها ، واغمضت عينيها واستغرقت في متابعة صور خيالها . وبعد برهة وجيزة . انبرت تقول :

ـ ان السماء تمطر في بريسكيا . اين يا ترى تقع هذه المدينة ؟

ـ بين ميلانو وفيرونا . هل تقبلين دعوتي لتناول طعام العشاء الليلة ؟

كانت العاصفة تشتد وتقسو . وكان كلير فايت جالسا الى عجلة القيادة والى جانبه توريانى . وكان كلير فايت يدرك انه ليس لديه فرصة للفوز ، وانه لم يفقد الامل في مثل هذا السباق الكبير الذي لايخلو من المفاجآت . ولكن لا يفتأ يفكر في ليليان وفي مسلكها معه . ولم يكن واثقا

من انها لم تزل فى باريس . وسأل توربانى :

ـــ هل بعثت بالبرقية الى ليليان ؟

ـــ أجل باق من الزمن دقيقتان .

وتحرك كليرفايت بالسيارة الى خط القيام، وحاول أن يبعد عن مخيلته صورة ليليان وأن يركز انتباهه فى الرجل الذى سيصدر الامر بالانطلاق ولكن دون جدوى .

واعلن المذيع عقب اعطاء الاشارة ، وقال : « لقد تحرك كلير فايت بسيارته ، والى جانبه توربانى » .

●●●

عادت ليليان ادراجها الى الفندق . واحست باعراض الحمى ، ولكنها تجاهلت امرها . وراحت تتأمل صورتها فى المرآة . ولم يسعها الا أن تبتسم . واستدارت لتجد برقيتين فوق المنضدة . ترى ماذا حدث ؟ وتريثت قليلا قبل أن تفض احديهما وكانت هذه البرقية من كلير فايت : « سنبدأ السباق بعد خمس عشرة دقيقة . أرجو أن أجدك حيث تركتك » .

ووضعت البرقية جانبا . ثم انثنت تفض الثانية . وكانت هى الاخرى من كلير فايت . ترى لماذا يفعل ذلك الا يعرف أن كثرة البرقيات فى مثل هذه الظروف بالذات من دواعى الاثارة والانفعال !

وراحت تشغل نفسها بانتقاء ثوب السهرة . وسمعت طرقا على باب غرفتها واقبل الحارس يقول :

ـــ اليك جهاز الراديو . يمكنك بواسطته الاستماع الى اذاعة ميلانو وروما بكل سهولة وهذه برقية ثالثة .

وفضت البرقية الثالثة وهى فى عجب من امر

كليرفايت . ولكنها لم تكن من كلير فايت .. لقد كانت من هولمان الذى بعث بخير تمنياته لكلير فايت . وتساءلت فيما بينها وبين نفسها ، كيف تأتى لهولمان أن يعرف عنوان اقامتها .

انه ليوم المفاجآت . هذه البرقية هى أول كلمة تصلها من المصحة بعد مغادرتها لها . انها لم تكتب لاحد من زميلاتها القدامى ، فقد كانت تريد أن تقطع كل صلة لها بهذه المرحلة من حياتها .

وجلست برهة طويلة مستغرقة فى التفكير . ثم ادارت جهاز الراديو لتستمع الى ما يذاع من أنباء ، وكانت اذاعة روما تعلن مراحل السباق والقرى ، مع بيان تفصيلى بالساعات والدقائق التى تقطعها السيارات .

وتملكت منها شتى الفكر ومختلف المشاعر . وحاولت أن تدرك السر فى هذا السباق مع الموت ، وذلك الاهتمام الجماهيرى بمثل هذه الظاهرة . انها تحاول بكل جهد متابعة الانباء ، مع أن لها فيها ناحيـــة تستحوذ على اهتمامها . ومع ذلك فقد وجدت نفسها توقف الجهاز ، وتتجه الى النافذة ، تطل منها وتسترسل مع خواطرها .

وعادت تروح وتغدو فى غرفتها . لقد كانت قلقة لا يستقر لها قرار . فقد كانت تشعر فى قرارة نفسها ، انها ارتكبت خطأ لم يكن فى وسعها تجنبه واصبح من المتعذر عليها العدول عنه .

وبدأت ترتدى ثيابها استعدادا للسهرة . وكانت البرقية لم تزل فى مكانها من المنضدة وعجبت من أمر نفسها وهى تختلس النظر اليها ، وتعود بها الذاكرة لأول مرة الى هذه البقعة بين الجبال . ترى ماذا يفعلون فى المصحة ، فى هـــذا الوقت بالذات ، بينما كلير فايت

يسابق بسيارته الزمن .. والموت .

وترددت قليلا ، قبل أن ترفع سماعة التليفون لتتصل بالمصحة .

●●●

صاح فورياتى ، «سينا ، عليك بتغيير الاطارات فورا » .

وعقب كلير فايت قائلا ، «يا لهذا الطقس الممطر اللعين ! »

وكان الناس يقفون فى كل مكان غير عابئين بهذا الجو العاصف ، واندفع كلير فايت بسيارته لايلوى على شىء ، وتوقف فجأة بسيارته على حفا حفرة كاد أن يتردى فيها . ومد له احدهم يده بكوب من عصير الليمون ، فسأله :

ـ ما هو مركزنا ؟

ـ الثامن عشر .

ـ مركز ردىء .

ـ ومن هو الاول ؟

ـ ماركيتى .

ـ ما هى المسافة بيننا وبينه ؟

ـ مسيرة تسع عشرة دقيقة . لا تقلق .. العبرة بالوصول الى خط النهاية .

وسمع كلير فايت صوت المدير يبتهل ويصلى كما هى عادته . فقال له :

«ماذا أتى بك الى هنا ، ان مكانك فى بريسكيا ؟» .

ـ جئت مستقلا احدى الطائرات الخاصة .

ولم تسمع البقية الباقية من كلماته ، التى لم يترك لها هدير المحرك مكانا . واندفعت السيارة تخترق الصفوف ، ومضت فى طريقها قدما لا غير عابئة بتهليل الجماهير ولا بهتافاتهم .

الفصل السابع عشر

تم الاتصال التليفوني ، باسرع مما كانت تتوقع ليليان . « مصحة بيللا فيستا » .

ورجحت ليليان ان الصوت ، صوت مس هيجار . فقالت وهي تكاد أن تسمع دقات قلبها ، « مستر هولمان ، من فضلك » .

« لحظة واحدة لو سمحت » .

وانتظرت على أحر من الجمر . وكان واضحا انهم يبحثون عن هولمان . واخيرا تناقلت الاسلاك الحديث التليفوني .

ـ هولمان . من المتحدث ؟

ـ ليليان .

ـ من ؟

ـ ليليان دنكرك .

ـ ليليان ! اين انت ؟

ـ في باريس . لقد تسلمت برقيتك الى كلير فايت . لقد بعثت بها الى فندقه .

ـ ألست في بريسكيا ؟

ـ كلا .

ـ وهل كان عدم ذهابك بناء على رغبة كلير فايت ؟

ـ أجل . هذه هي رغبته .

ـ انني أتابع انباء السباق في الراديو . أظن أن هذا هو شأنك ؟

ـ اجل .

ـ انه يتقدم بصورة مذهلة . انني خير من يعرفه . انه يترقب الفرصة المناسبة ليقفز الى المقدمة .. انه لن يفعل ذلك قبل منتصف الليل . انه سباق مع الزمن هل تفهمين ؟

ـ اجل .. سباق مع الزمن . كيف حالك ؟

ـ بخير . ان السرعة تبلغ ٧٥ ميلا في الساعة .

ـ أجل . اجل . هل تشعرين بتحسن ؟

ـ بتحسن كثير . ليليان .. استمتعي الى محطة روما .

ـ وهذا ما افعله . يسرني ان اسمع منك عن تحسن صحتك . انني سعيدة بهذا .

ـ وكيف حالك أنت ؟

ـ بخير ..

ـ لقد احسنت صنعا بعدم ذهابك الى بريسكيا . ان الطقس مكفهر مشحون بالأمطار .

ـ كيف تسير الأمور عندكم ؟

ـ في طريقها المعتاد . لم يطرأ عليها تغيير يذكر .

ـ كيف حال بوريس ؟

ـ من ؟

ـ بوريس فولكوف .

ـ اننا لا نراه كثيرا . لم يعد يحضر الى المصحة .

أظن انه بخير .

— ألم تلتق به مطلقا ؟

— بلى ، التقيت به منذ اسبوعين تقريبا ، وكان معه كلبه البوليس الذى تعرفينه جيدا . ولم نتبادل حديثا ما . كيف وجدت عالمك ؟ أو كان كما تخيلته ؟

— أكثر مما خيل الى . واعتقد أن الامر يتوقف على أسلوب حياتك فيه .

— ليليان ، لقد أمر لى كبير الاطباء بمغادرة المصحة بعد بضعة أسابيع .

ولم تصدق ليليان ما سمعته منه ، فلطالما وعدت بذلك . ولكنها اجابته قائلة :

— رائع . اذن فقد قدر لنا أن نلتقى . هل أبلغ كليز فابيت بالنبأ السار ؟

— من الخير الا تفعلى هذا . ان المذيع يعلن آخر انباء السباق ، وأعتقد انك تحبين الاستماع اليها . الى لقاء قريب .

— الى اللقاء .

وكانت تود لو أضافت الى حديثها شيئا عن بوريس ، ولكنها لم تفعل شيئا من هذا القبيل ، وأعادت سماعة التليفون الى مكانها ، ثم وقفت مستغرقة فى تأملاتها ، الى أن وجدت نفسها تنخرط فى البكاء .

●●●

استرسل الفيكونت دى بابستر فى حديثه قائلا :

— لقد أصبح لكلمة السعادة أهمية خاصة فى عصرنا هذا . لقد أصبحت عزيزة المنال منذ قرون . والناس يجدون فى طلبها الى أن افقدهم هذا لذة الشعور بها .

— وهل انت من الباحثين عن السعادة ؟

— ومن المعجبين بها ؟ بل من الحالمين بها . ثم لاتنسى بأن فى شقاء الاخرين أحيانا سعادة البعض أن السعادة كنز يضحى فى سبيل العثور عليه بكل عزيز ! وانها لتكون أحيانا على مقربة منا ولا نحس بها . . وتتركها تفلت من بين أيدينا .

ترى ، هل تعمد الى هذا الحديث لتتخذ منه منفذا الى ما تريد أن تعرضه على . !

أن أسيح عشيقتك ؟

— اطلقى عليه ماشئت من أسماء . انه العرض الذى يهيىء لك ما أنت بحاجة اليه من اطار . وفى معنى آخر انه الاطار الذى يناسبك .

— كهذا الاطار الذى تثبت به وتحيط حجرا .

— حجر كريم ثمين .

— حجر اليأس القاتل ؟

— حجر من الوحدة ، والعزلة النفسية ، ومن الشجاعة ، والاقدام المستهتر . . سيدتى ، ارجو أن تغفرى لى الحاحى . ان ماسة لها مثل هذا البريق انما تعد من الاحجار الكريمة النادرة الوجود . هل تحبين الاستماع الى آخر انباء سباق ايطاليا .

— هنا ؟ وفى مكتبيم ؟

— ولم لا ؟ ان البرت ، سيد هذا الملهى ، على استعداد دائما لتلبية رغبات العملاء . انه رجل واسع الافق بعيد النظر .

وبدأت الفرقة الموسيقية تعزف قطعة من الارملة الطروب . وأمر لهما البرت بزجاجة من الكونياك تاركالهما اختيار نوعها . ومدت ليليان يدها الى كأسها تلقى

بمحتوياته فى جوفها • وضحك دي بايستر ، وتاملته ليليان ، ورأت فيه ذلك الطراز من الرجال اومن البشر الذى يجسد الناحية الاخرى من الوجود الانسانى . • هذا الطراز الذى له القدرة على تحويل طرق الجبال الوعرة ليجعل منها طرقا للمتنزهات اليانعة المزدهرة . انه يذكرها بلبقالى صقلية • وبادرته قائلة :

ـ يجب ان ننصرف الان •

ـ ما أكثر ما تقولين ذلك • • دائما تريدين الانصراف •

ـ لو تعلم كم احب أن تستمر هذه الجلسة . أن الدوام من الامور المتعذرة • لو يمكن أن تقف بنا عقارب الساعة حيث هى الان • لكل شىء مهما طال نهاية .

واصطحبها فى سيارته الى فندقها ، حيث تركها مودعا . واقبل الحارس الليلى يستقبلها فى انفعال قائلا :

ان السيد كلير فابت يحتل المركز الثانى عشر وقد اعلن المذيع انه يقود سيارته ببراعة فائقة ! »

ـ هذا ما اعرفه عنه •

ــ اذا ما واصل تقدمه هذا ، فانه سيكون فى مقدمة العائدين الى بريسكيا فى الصباح الباكر •

واستدارت تزمع السير الى طريق سانت ـ ميشيل لتتناول قدح من القهوة والاستعانة بها بضطرب به هذا الحى من حياة على قضاء بضع ساعات من الليل .

وبعد أن شعرت بحاجتها الى التغيير ، نهضت تمشى فى الطرقات المحيطة بهذا الحى دون أن تخشى الليل أو السير بمفردها .

واثناء سيرها عبر طريق السين ، وقع نظرها على امرأة مستلقية على الارض ، حسبتها مخمورة ، فلم

تتوقف لتتبين حقيقة أمرها • الا أن خاطرا تبادر الى ذهنها ، وحدا بها الى العودة بضع خطوات ، لتجد ان المرأة قد فارقت الحياة . فندت عن صدر ليليان صرخة مكتومة • ووقفت حيرى لا تدرى ماذا هى فاعلة . وتلفتت حولها لتجد جيرار ، شاعر الحى الذى كانت لها به سابق معرفة مقبلا • فبادرته قائلة :

ـ تقدم ، ان امرأة ميتة ملقاة هناك •

ـ ربما كانت ثملة او فاقدة الوعى •

ـ كلا ، لقد فارقت الحياة • ماذا دهاك ؟

ـ لست احب أن اقحم نفسى فى مثل هذه الامور •

ـ ولكننا لا نتركها ملقاة حيث هى •

هذا من شأن رجال الشرطة . يجب أن نبتعد خشية أن يظنوا بنا الظنون • هلم بنا !

واطبق الشاعر على ذراعها • ولكنها وقفت ساكنة تحملق فى الوجه الذى لم تعد صاحبته تدرى شيئا عما يدور حولها ، والذى تعرف صاحبته الان مالا تعرفه هى ، وعاد جيرار يلح عليها بقوله :

« هيا بنا : اننا لن نلقى سوى المتاعب . يمكننا أن نتصل بأولى الامر تليفونيا ليتولوا أمرها » •

وانصاعت له • وكانت تدرك فى قرارة نفسها أن جيرار كان على حق فيما زعم ، وأسرع الرجل بخطاه مبتعدا عن مسرح الموت • . أن الحديث عن الموت شىء ومواجهته شىء آخر .

ورأت انه يحسن بهما الاتصال بالشرطة تليفونيا من الفندق • وقام جيرار بابلاغ الشرطة ودعته الى كأس من الشمبانيا • واقبل الحارس الليلى بالزجاجة قائلا :

« لقد أصبح كلير فابت فى المركز العاشر » .

وأستأذنها جيرار فى الانصراف ، وغى ان يحمل ما تبقى من زجاجة الشمبانيا معه واذنت له ، وشيعته بابتسامة .

وارتقت الدرج الى غرفتها، حيث خلعت ثيابها وآوت الى فراشها .

● ● ●

صحت ليليـــان من نومها ، على رنين التليفون . وكانت أشعة شمس الصباح تنفذ من ثنايا ستر النافذة ، وقدرت ان المتحدث احد رجال الشرطـة ، ورفعت التليفون . وكان المتحدث هو كلير قايت :

ـ لقد وصلنا لتونا الى بريسكيا .

ـ بريسكيا ! هل انتهى السباق ؟

ـ وفى المركز السادس .

ـ انها لنتيجة رائعة .

ـ ليس الى هذا الحد . اننى عائد غدا . سأخلد الى النوم الآن . أن توريانى يغط فى نومه فوق المقعد المجاور لى .

ـ أجل . يجب أن تنال قسطا من الراحة . لقد احسنت صنعا باتصالك بى .

ـ هل ستصحبينني الى الريفييرا ؟

ـ أجل .

ـ عليك بانتظارى .

ـ أجل . أجل .

ـ اياك وان ترحلي الى أى مكان قبل عودتى .

ـ ستجدنى فى انتظارك .

الفصل الثامن عشر

قال لها كلير قايت : « لقد ابتعت هذا البيت قبـل الحرب ، حينما كان فى وسعك أن تبتاعى نصف الريفييرا فى مقابل أغنية . ولم يسبق لى أن أقمت به ، أكثر من الفترة التى كنت أودع فيها بعض الحاجيات والمؤن . وكما ترين ، انه بيت من الطراز القديم . ولن يتعذر علينا اعادة زخرفته وتأثيثه على طراز عصرى » .

فضحكت ليليان قائلة ، « وهل تريد الاقامة هنا حقا ؟ » .

ـ وما المانع ؟

وتطلعت بعينيها من النافذة الى الحديقة المظلمة ، قائلة :

ـ حينما تبلغ الخامسـة والستين ، وبعد حياة الكدح ، يمكنك أن تتقاعد كمواطن فرنسى صـالح فى هذه الناحية ، وتقضى أوقاتك بين فندق دى بارى وبين الكازينو فى أيام الآحاد .

ـ ان الحديقة كبيرة ، وهى تستغرق الكثير للعناية بها . وارجو أن يتاح لى تدعيم مدخراتى بنصيبى من سباق موناكو . ما هو وجه اعتراضك على الاقامة هنا ؟

هل تؤثرين الاقامة فى بلد آخر ؟

ـ لست أدرى ٠

ـ كيف ؟ أليست لديك اية فكرة ؟

ـ كلا . انني لا احب التفكير في مثل هذه الامور . ان فى تحديد مكان الاقامة ، تحديدا للمكان الذى نموت فيه ٠

ـ ان طقس الشتاء هنا ، أحسن بكثير من طقس الشتاء فى باريس . وعلينا أن نسرع باجراء التحسينات المرغوبة قبل ان يحل الشتاء .

ـ الن تضطر الى الاقامة فى تولوز ابان الشتاء ؟

ـ بلى ٠ ولكنني أريد أن اطمئن على استقرارك بما يلائم صحتك فى الشتاء .

ـ أن المصحة خير مكان صالح فى الشتاء .

ـ وهل ينبغى لك العودة اليها ؟

ـ فلم تعقب بشىء . وعاد كلير فايت يلح فى السؤال :

ـ هل تحبين أن تعودى الى المصحة ؟

ـ بما تريدنى أن أجيب ألست معك الان ؟

ـ هل استشرت طبيبا فى ذلك ؟

ـ هذا ما لا حاجة بى اليه ٠

ـ سنتوجه معا لزيارة أحد الاطباء ٠ وسأبحث لك عن احسن طبيب فى فرنسا ، لنسأله رأيه .

والتزمت ليليان جانب الصمت ٠٠ اذن ، فهذه مرحلة اخرى من حياتنا ٠ ان كلير فايت ، كان يكفيه منى تأكيدى له بأن حالتي الصحية لا تستدعى شيئا من هذا القبيل : لقد تغيرت الاوضاع الان ٠ انه التفكير فى الاستقرار الذي يحمله على انتهاج هذا الاسلوب الجديد ٠٠ واستطرد كلير فايت :

ـ هلم بنا الى الخارج . الى الاضواء والحياة .

وفى الخارج ، تنفست ليليان الصعداء ٠ وسمعت كلير فايت يصارحها بقوله :

ـ فى الحق ، انك راغبة عن الاقامة معى ومشاركتى حياتى ٠ هذا ما أدركه تماما ٠

ـ ألسنا معا فعلا ؟ ألست اقيم معك ؟

ـ انك تقيمين معى اقامة من يزمع الرحيل غدا ٠

ـ ألم يكن هذا هو أسلوبك فى الحياة ؟

ـ ربما ـ اما الان ، فلا : انك لا تريدين أن تربطى حياتك بى

ـ ولا بغيرك ٠

ـ وما هو السر فى ذلك ؟

ـ لقد تحدثنا فى ذلك بما فيه الكفاية ٠ لماذا تعود دائما الى هذا الموضوع ٠٠

ـ لانه لم يسبق لى أن رغبت فى شىء جاد بمثل ما رغبت فى الزواج منك ، والاستقرار معى فى معيشة واحدة ٠

ـ الست معك الان ؟

ـ هذا لا يكفى .

انها لا تريد أن ترتبط بشخص أو بمكان ما ٠ انها ترى فى هذا البيت ، أو فى غيره سجنا لها ٠٠ ماذا دهاه لماذا يصر على تعكير صفو حياتنا بالحاحه هذا ؟ لماذا لا يقتنع بما نحن فيه ؟ وسمعته يستطرد قائلا :

ـ يمكنك أن تحاولى ٠ فاذا ما قدر لهذه التجربة الفشل ، فلك أن تفعلى ما تشائين ٠

وجال بخاطرها : وهل لدى فسحة من الوقت للمحاولات والتجارب ؟ حتى هذه المناقشات ، لم يعدلدى

فسحة من الوقت لها . يجب أن أرحل عنه واختفي من حياته .

وتجملت بالهدوء .. أنها لم تعد تخشى شيئاً .

واتجها الى الكازينو . وراح كلير فايت يقامر ويربح . وقال لليليان :

« أرجو أن تظلي في مكانك خلفي لانك تجلبين لي الحظ » .

وواتاه الحظ بصورة مذهلة . وتكدست النقود أمامه . وأصبح محط أنظار الملتفين حول المائدة الخضراء . ورأت ليليان الامير فيولا ، من بين الواقفين .. الامير فيولا الذي زاملها في الرقص في ذلك الحفل بصقلية ، وداب كلير فايت على المقامرة الى جانب اللون الاحمر ، ولم يتخل عنه حظه الى أن اصبح محورا لحديث الجميع . وجمع كلير فايت أرباحه ، وتهيأ للانصراف قائلا :

ـ لقد جلبت لي الحظ فعلا بوقوفك خلفي .

وما أن ترك المائدة ، وأقلع عن المقامرة ، حتى لم يعد الحظ في جانب اللون الاحمر ، الذي كان الرابح على طول الخط . وعقب على هذا قائلا :

« أرأيت ، أنها الحاسة السادسة . ؟

وابتسمت . آه لو قدر لك أن تنتفع بها في شئون الحب !

وأقبل الامير فيولا يزجي تهانيه لهما :

« أن التوقف عن المقامرة في الوقت المناسب ، فن في حد ذاته » .

ثم استدار الى ليليان قائلا : « الا توافقين ؟ » .

ـ لست أدري . اذ ليست لي خبرة بذلك .

فضحك قائلا : « لا أصدق شيئا من هذا القبيل . لقد غادرت صقلية بعد أن غزوت القلوب وشغلت الاذهان . ثم وصلت الى روما ورحلت عنها كالبرق الخاطف ، وفي فينيسيا لم يتيسر لاحد أن يلتقي بك . هذا ما قيل لي » .

وتوجها الى المطعم للاحتفال بما وفق اليه كلير فايت الذي بادرها قائلا :

ـ اعتقد أن في استطاعتي بما ربحته الليلة ، تنفيذ كل ما نريده من تحسينات في المنزل والتعجيل باعداده .

ـ ولماذا لا تقدر أنك قد تتعرض لخسارة غدا ؟

ـ هل هذا هو ما تقصدين ؟

ـ كلا ، بكل تأكيد .

ـ انني لن أعيد الكرة . وسأضيف الى التحسينات بناء حوض للسباحة بالحديقة .

ـ لست بحاجة اليه ، لانني لا الم بالسباحة .

ـ هل أنت متعبة ؟

ـ كلا .

ولحق بهما فيولا ، وبعد أن اتخذ له مقعدا قال :

لقد كان توالي الاحمر معجزة . أن مثل هذه الظواهر لا تحدث كثيرا . ولم يسبق لي أن شاهدت هذه الظواهر العجيبة سوى مرة واحدة ، توالي فيها ربح اللون الاسود . وكان هذا فيما قبل الحرب ، وقد أدى حظ المقامر الذي لا يقهر الى افلاس البنك . وكان يراهن على اللون الاسود وعلى رقم ١٣ ، بالتتابع . وكان الجميع يحذون حذوه . بعد أن تفاءلوا به . وكان هذا الرجل روسيا . واظن أنه كان يدعى فولكوف .

فسألته ليليان وهي غير مصدقة لما سمعت :

« فولكوف بوريس فولكوف » ؟

ـ تماما ، بوريس فولكوف ! هل لك سابق معرفة به
فهزت رأسها نفيا • وكان كلير فايت يتأملها عن كثب • واستطرد فيولا قائلا :

ـ بودي لو عرفت ما كان من أمر هذا الرجل • لقد كان يشترك أحيانا في سباق السيارات ، وكان طبعا مدمنا للخمر . ولعل هذا الادمان هو الذي انتهى به الى ما لا تحمد عقباه . هل تزمع اعادة الكرة الليلة ؟

ـ ولم لا ؟ ان الحظ يجذب الحظ •

ـ من الخطأ الجسيم أن يعود الانسان الى المائدة الخضراء بعد مغادرتها رابحا • انها قاعدة قديمة قدم هذا العالم •

ونهض كلير فايت دون أن يدعوها لمرافقته هذه المرة ، ودعاها فيولا لتبارك حظه العاثر ، واتجها الى مائدة بخلاف المائدة التي اتجه اليها كلير فايت • وربحت ليليان . ربحت مع الرقم صفر ثم ربحت مع الرقم ١٣ . أما فيولا ، فقد كان حظه العاثر ملازما له . وبعد قليل رأت كلير فايت يقف خلفها ويتابع أسلوب مقامرتها ، وقالت أخيرا : حسبي هذا ••

« وحثها فيولا على مواصلة المقامرة قائلا :

« ان الليلة ليلتك • وهذا الحظ فرصة لا تعوض ! •

ـ لقد انتهى الليل وولى ، ولولا هذه الستائر لرأيت نور الصباح •

وما أن خرجت مع كلير فايت الى خارج الكازينو ، حتى رأت الريفييرا في ثوبها الطبيعي ـ سماء نحاسية اللون عند الأفق ، تلتقي ببحر تتلاطم أمواجه في انتظار بزوغ الشمس بأشعتها الذهبية • وكان الشاطىء هادئا ، والنسيم يحمل معه رائحة البحر المألوفة •

ولم تدر ليليان كيف بدأت المناقشة بينهما ، ولا كيف تفجرت جدلا عنيفا . لقد سمعته يتحدث ويتحدث ، ولكنها لم تفهم مما يحمله حديثه الى أذنيها شيئا :

ـ ماذا في وسعي أن أفعل ؟ رجل استمد من غيابه قوة لم يكن ليحظى بها لو كان موجودا معنا • انك تريننى الآن بكل ما في من محاسن وعيوب • أما هو فلا عيوب له ، لانه لا وجود له ، ولا يمكن للعدم أن يخلق غير العدم • أليس هذا هو التصوير الصحيح لحالتنا ؟ أليس هذا هو شأننا ؟ لقد كنت أشعر بهذا في قرارة نفسي ، وهذا هو السر في رفضك الزواج مني انك تريدين العودة اليه !

ورفعت ليليان رأسها اليه وهي تردد :

ـ ما هذا ؟ ماذا تقول ؟

ـ أليس هذا هو الحق الصريح ؟ أليس هذا هو عين ما يدور بخلدك ؟

ـ لم يجل بخاطري سوى ما يتردى أكثر الناس فيه من خطأ لا تحاول أن ترغمني على موافقتك فيما تزعم قسرا •

انني أفعل كل شيء في سبيل الاحتفاظ بك •

ـ وهل تعتقد انه يمكنك هذا بسلوك هذا المسلك ؟ خل بينك وبين هذه الغيرة ان بوريس سيرفض لقائي اذ ما قدر ان أعود أدراجي الى حيث كنت •

ـ هذا لا ينفي أنك تريدين العودة من حيث أتيت •

ـ لا ترغمني على التفكير في الماضي . هل أعمى الله بصيرتك ؟

ـ ربما كان الامر كذلك • ربما •

وقاد سيارته في صمت عبر طريق البحر الى أنتيب •

وشاهدا عربة يجرها حمار ، وتجلس في مقعد القيادة منها فتاة في ربيع العمر ، رافعة عقيرتها بالغناء ، وتأملت ليليان الفتاة وهي سعيدة .

واغرورقت عيناها بالدموع ، وأشاحت بوجهها عن كلير فايت الذي سألها :

« ليس ثمة ما يدعو للبكاء . انك تخونيني مع شبح .

نعم . ولكن الشبح لا يسمى بوريس . ترى هل أخبرك باسمه الحقيقي ؟ ولكنه سيودعني ، بعد ذلك ، احدى المستشفيات ، ويقيم على بابها الحراس ، الى أن يقضي الله أمرا كان مفعولا .

واستدارت تتأمل وجه كلير فايت . ان خير ما أمله في هذا الموقف ، هو أن أختفي من حياته .. لقد خبا وميض النار ، ولم يعد ثمة جدوى من التشبث بالرماد .

ودلفا بالسيارة الى ساحة الفندق . وأخذ كلير فايت بيد ليليان دون أن يحاول النظر الى وجهها قائلا :

« لن نلتقي كثيرا . فغدا سيبدأ التدريب » .

وكان يبالغ في قوله هذا . لأن السباق التالي لم يكن يتطلب تدريبا . وتبينت ليليان من قوله حقيقة ما آل اليه الموقف بينهما لقد بلغ بهما طريقه المسدود . ان كلير فايت لن يعود اليها بالصورة التي كان عليها من قبل .. لقد انتهى عهد ما كان بينهما من مشاعر متبادلة ـ من الحب الخالص ، والنية الصادقة . ان الحب من أرق المشاعر وأدقها حدا ، وليس من اليسير على جميع البشر أن يوفقوا في اختيار طريقه بدون مشقة أو عسر أن ما تبقى لها من أيام الحياة ، ليس لكلير فايت نصيب فيه . ومع ذلك فليس لديها متسع من الوقت للتغيير ، ولبدء حياة جديدة . أية حياة جديدة ؟ انها لتدرك أن هذه هي

حياتها ، وانها استنفدت منها الكثير . وقطعت برأى فيما يجب أن تقوله له :

ـ كلير فايت .. ان ما قلته ليس فيه نصيب من الصحة . ولا يستند الى حقيقة أو منطق صحيح ! فلتنس كل ما تفوهت به .. لأنه أبعد ما يكون عن الواقع !

ـ هل ستشاركينني حياتي ؟

ـ أجل

وكانت تريد أن تضع حدا لأى خلاف بينهما . وعاد يلح :

ـ هل تبينت أخيرا ما أريد ؟

ـ أجل .

ـ وهل تقبلين الزواج مني ؟

ـ أجل .

ـ متى سيكون ذلك ؟

ـ حينما تشاء . فليكن في الخريف .

ـ أخيرا ساد الوفاق بيننا ! لن تأسفي على قرارك هذا !

ـ أدرك هذا .

ـ انك متعبة .. جد متعبة .. يجب أن تخلدي الى الراحة

ـ وأنت ؟

ـ سأنعم بالسباحة قليلا ثم أمضي في طريقي

وذهب بها الى غرفتها ، حيث أودعها فراشها ، وانصرف في هدوء . وتبادر الى ذهنها : كأني به يودع مريضة في فراشها باحدى المستشفيات .

وكانت نافذة غرفتها مفتوحة . ورأته يتجه الى الشاطيء . وعقدت العزم فيما بينها وبين نفسها على أن تهجره بعد السباق ، وترحل بعيدا عنه .

الفصل التاسع عشر

لم تكن مسافة السباق بأكثر من ميلين طولا ، ولكن طريق السباق كان يؤدى الي شوارع مونت كارلو ، التى تخترق المدينة ، ومنها الى طريق الشاطىء ، عبر المرتفعات المشيد فوقها الكازينو . ثم العودة الى خط القيام • وكان طريق السباق متسعا فى الكثير من مقاطعه ، وكثير المنحنيات ، دقيق الزوايا فى البعض منها • وكان على السيارة أن تدور ، وتدور فى مثل هذه المنحنيات . والمنعرجات مئات المرات ، متطلبة جهدا مضنيا وبراعة لاتدانى . وقال كلير فايت لليليان ضاحكا :

— ياله من طريق ماجن ، عابث • ان القيادة فيه أشبه بالقيادة فى السيرك . لاتكاد السيارة أن تنطلق ، حتى تواجه بأحد المنحنيات • أين ستجلسين ••؟

— فى المنصة فى الصف العاشر بالناحية اليمنى •

— سيكون الطقس شديد الحرارة • هل معك قبعة ؟

— أجل • الاتكفى هذه ؟

— حسنا • سنقضى معا هذه الامسية فى الباڤيون

دور ، نأكل ونشرب ونلهو ونعبث . وغدا ستتوجه لمقابلة مهندس معمارى نسأله أن يخطط لنا مشروعا لتجديد المنزل .

وسمعت صوت المدير ينادي باللغة الايطالية • وقال لها كلير فايت : « سيبدأ السباق » •

وقبلته ليليان متمنية له التوفيق والسلامة • ولوح لها كلير فايت بيده بعد أن استقل سيارته ولوحت هى الاخرى بيدها .

• • •

انطلقت عشرون سيارة . وكان كلير فايت يحتل المركز الثامن ، فى الجولة الاولى • وكان ماركيتى فى المقدمة • وفى الدورة الرابعة ، أصبح كلير فايت فى المركز السابع ، وذلك قبل اجتياز النفق . وبعد ثلاث دورات أخرى ، أصبح فى السادس •

وجعلت ليليان من مقعدها فى المنصة تتابع المتسابقين وهم يمرقون • أمامها ، فلا تكاد أن ترى السيارة حتى تختفى عن نظرها ، ثم تعود بعد قليل فى أقل من دقيقتين . ان على هؤلاء المتسابقين أن يستكملوا مائة دورة • وبعد ما يقرب من الاربعين دورة ، شعرت بأنه قد آن الاوان لان تغادر المنصة الى حيث تستقل القطار قبل انتهاء السباق . وكانت تحتفظ بتذكرة للسفر الى زيورخ ، ابتاعتها فى صباح اليوم ؛ بينما كان كلير فايت يقوم بالتدريب الاخير • وكان الميعاد المحدد بالتذكرة هو بعد الغد ، حينما يستقل كلير فايت الطائرة الى روما فى المساء • وكان مفروضا أن تستقل القطار بعد ذلك • لقد اعتزمت الرحيل فى غفلة منه لكى تجنب نفسها وتجنبه

مالا طائل تحته من جدل أو نقاش . وبينما كانت مستغرقة في خواطرها ، سمعت القوم من حولها يهتفون لكلير فايت الذي استطاع أن يحتل مركزا آخر الى الامام .

● ● ●

وبعد ساعة ، استطاع كلير فايت أن يحتل المركز الثاني . ولم يصبح أمامه سوى أن يتقدم ماركيتي . وكان أمامه ثماني عشرة دورة أخرى . وقد حرص على أن يحافظ على المركز الثاني ، الى آخر لحظة حتى يتسنى له أن يقفز الى المركز الاول على غرة من ماركيتي . وبدأ ماركيتي يعترض طريقه ويسده عليه ؛ وما أن فطن الى ما يرمي اليه منافسه حتى كان كل هم كلير فايت : أن يفوز بهذا السباق الذي يعلق عليه آمالا كبارا ، تتركز كلها في ليليان وفي الاستقرار معها في حياة زوجية سعيدة ؛ وكان واثقا من نفسه ؛ وكان سعيدا بثقته هذه ؛ سعيدا بقرب تحقيق ما كان يصبو اليه طوال حياته من استقرار .

● ● ●

وفجأة يرى سيارة ماركيتي ترقص من تحت قائدها ، ثم تدور به وتدور ، لتنقلب به رأسا على عقب وماركيتي يطير في الهواء ليسقط على الارض . وحاول كلير فايت أن يجد لسيارته منفذا يندفع بها منه ، ولكنه أدرك أن هذا متعذر عليه ، بسبب السيارة الرافعة وسيارة الاسعاف ، اللتين برزتا فجأة الى الطريق . وعلى الرغم من هذا كله ، فان رغبته في الفوز وانتهاز هذه الفرصة ، حدت به الى الاقدام على محاولة أخرى انتهت به الى كارثة كانت

محققة ! وكان أن حطمت عجلة القيادة عظام صدره ، علاوة على ما الحق به من أضرار أخرى . ودارت الدنيا من حوله قبل أن يفقد وعيه . وأسرع رجال الاسعاف وغيرهم من رجال الانقاذ الى كلير فايت وسيارته لاخراجه من الحطام ، وابعاد سيارته عن النيران المتخلفة عن الاصطدام الاول .

● ● ●

لم تتبين ليليان ما حدث لاول وهلة . ولم يكن صوت المذيع . واضحا . لقد سمعت عن اصطدام بعض السيارات ، دون تحديد أو تخصيص . ثم راحت تتابع رتل السيارات في مرورها أمام المنصة . دون أن ترى بينها سيارة كلير فايت . غير أنها لم تصدق عينيها مرجحة خطأها . ثم عادت تستمع الى المذيع الذي كان يردد نبأ التصادم واصابة بعض المتسابقين دون أن يقتل أحد منهم ، ووعد المشاهدين بأنباء أخرى أكثر دقة .
وبعد ذلك ، بدأ يسرد مراكز المتسابقين حسب تتابعها ولم تسمع ليليان شيئا عن كلير فايت الذي كان في المركز الثاني . وودت أن تركز انتباهها في متابعة السيارات المتسابقة في دوراتها ، باحثة عن رقم ١٢ ، المدون فوق السيارة الحمراء . ولم تعثر للسيارة عن أثر بين غيرها . وبينما كانت في حالة من الشك الرهيب ، سمعت المذيع يعلن : « ومن بين المصابين كلير فايت ؛ الذي نقل الى المستشفى فاقد الوعي ... »

هذا ما لا يمكن تصديقه ! وبالذات في هذا السباق الذي لا يعد شيئا منكورا قياسا على غيره لابد وأن في الامر لبسا . ان سيارته لا محالة مندفعة مع غيرها ، وما

هى الا لحظة حتى تبدو فى مقدمة السيارات . ثم عادت تردد : « فاقد الوعى ! ماذا يعنى هذا ؟ »

واخيرا وجدت نفسها .. دون ارادة منها ، تحملانها الى نقطة المراقبة .. بأمل أن تجده هناك ، مستلقيا فوق احدى الحفات ، ووجدت المدير يقول لها ، وقد تندى عرقا :

ـ لقد نقل الى المستشفى . رباه ! لماذا يحدث هذا لنا ! لحظة من فضلك ...

واندفع الرجل الى حافة الطريق يتابع مسار السيارات . فأسرعت ليليان الى جانبه تسأله فى صوت مرتفع :

ـ ماذا حدث ؟

ولم تسمع منه اجابة على سؤالها . وراحت تدور بعينيها فيما حولها لتقع على من يشفى غليلها دون جدوى . بل ولاحظت أنهم كانوا يتجنبونها ويبتعدون عنها .

وعاد المدير يرعد ويزبد ، فقال له :

دعنى من كل هذا .. اريد ان اعرف اين اجده الان

ـ فى المستشفى حيث نقل .

ـ ولماذا لم تذهب معه ؟

ـ وماذا يمكننى ان افعل له ؟ انه بحاجة الى طبيب الان ، وليس الى مدير .

ـ خبرنى ! ماذا الم به ؟

ـ لست ادرى . أننى لم اره بعد اصابته . اننى يجب ان اتابع السباق من مكانى هذا .

ـ نعم ، نعم . فالسباق يجب الا يتوقف !

ـ هذه هى الحياة . ان الحياة لا تتوقف باصابة

أحد .. حتى ولا بموته .

ـ هل قضى نحبه ؟

ـ كلا . كلا . انه فاقد الوعى فقط . آسف يا سيدتى .

وعاد المدير يتابع السباق . واستدارت ليليان تعود ادراجها .

واستقلت عربة ركوب الى المستشفى .. وجلست ليليان فريسة للحزن والاسى وكانت تستحث قائد العربة أن يسرع بها ، اذا كان يخيل اليها أنها لا تتحرك .

واخيرا ، توقفت بها العربة أمام المستشفى ، التى خيل اليها انها كانت على حدود الابد . وكانت ليليان ، قد عاهدت نفسها ، فى تلك الدقائق وهى فى طريقها الى المستشفى انها لن تهجر كلير فايت ، وأنها ستقبل الزواج منه ، اذا ما قدرت له النجاة !

وقالت لها ممرضة الاستقبال : « ان السيد كلير فايت فى غرفة العمليات . »

ـ هل يمكن أن أعرف منك مدى اصابته ؟

ـ اسفة يا سيدتى . هل أنت زوجته ؟

ـ كلا .

ـ احدى قريباته ؟

وما علاقة هذا بحقيقة حالته ؟

ـ لا شىء ، سوى ان التعليمات تقضى بعدم التصريح لغير الاقارب بزيارته بعد الفراغ من الجراحة .

ـ وهل كان من المتعين اجراء جراحة له ؟

هذا ما قرره الاطباء .

هل يمكن أن يسمح لى بالانتظار ؟

وأومأت الممرضة لها ايجابا ، وهى تشير بيدها الى غرفة الانتظار .

وجلست ليليان تتصفح بعض المجلات دون أن تعي شيئا مما تقرأ أو ترى . وكانت قلقة , تضع هذه تمسك بتلك ، وتنهض عن مقعدها وتعود لتجلس من جديد ، وقد خيل اليها أن دنياها قد انحسرت في تلك اللحظات التي تمضيها بين جدران تلك الغرفة .

وبعد خمس عشرة دقيقة ، حين كانت تقف بنافذة الغرفة تطل منها ، رأت سيارة تقف بباب المستشفى ، وبها المدير واثنان من مساعديه . وبعد برهة وجيزة ، دخلوا الى غرفة الانتظار واجمين مهمومين .

وسألتهم ليليان : « ما هي آخر الأنباء ؟ »

وأشار المدير الى أحد مساعديه قائلا :

ــ لقد كان موجودا حينما نقل من سيارته .

وقال الميكانيكي : ــ لقد كانت الدماء منبثقة من فمه .

ــ من فمه ؟

ــ أجل يا سيدتي . كانت أشبه بنزيف صدري .

ــ هذا مستحيل . انه لم يكن مريضا فلم يتعرض لنزيف صدري ؟

ــ لأن عجلة القيادة حطمت القفص الصدري .

ــ كلا ، كلا !

اتجه المدير الى الباب قائلا : سأحاول مقابلة الطبيب وسمعت ليليان مناقشته الحادة مع الممرضة . ثم عاد أدراجه ، ووقف بالباب ساكنا لا يتحرك . ثم تحركت شفتاه دون أن يسمع له صوت . وأخيرا قال : « لقد لفظ كلير فايت أنفاسه الأخيرة » .

حملق مساعداه في وجهه ، ثم قال له أصغرهما سنا : « وهل أجريت له جراحة ؟ هل أخطأ الأطباء في شيء ؟ »

ــ لم تجر له جراحة . لقد توفي قبل أن يتمكنوا من هذا .

ووقف الرجال الثلاثة يتأملون ليليان .

وأخيرا قالت : « وأين هو الآن ؟ »

ــ من الأفضل ألا تريه الآن . فلنؤجل هذا الى الغد .

ــ ومن يا ترى صاحب هذا الرأي ؟

ــ انه الطبيب . انك ان رأيته لن تتعرفي عليه . وانه لمن الخير لك أن تعودي في الغد . يمكن أن تصحبك الى الفندق .

ــ ولماذا يتعذر علي أن أتعرف عليه »

وأطرق المدير لحظة قبل أن يجيب : « ان وجهه مشوه . ويرجح الطبيب أنه فقد وعيه لتوه . فلم يعرف شيئا عما نزل به . ان مصابنا فيه أليم . ان معرفتنا به تمتد الى أقدم من معرفتك به ! »

ــ أجل . هذا صحيح .

ــ أرجو الا تسيء فهمي . انني أعني أن معرفتنا الطويلة به تضاعف من الشعور بفراقه لنا . ان الموت فراق .. فراق طويل . هذا هو الموت .. يكون الرجل بيننا ، ثم يمضي عنا في لمح البصر .

ــ أجل ! انني أدرك ما تريد التعبير عنه .

ــ هلم بنا الى فندقك . وغدا ، يمكنك أن تعودي لرؤيته .

ــ وماذا تراني فاعلة في فندقي .

ــ يمكنك استدعاء طبيب ليصف لك منوما . ثم انك لن تفعلي شيئا يتخلفك هنا . هيا بنا . لقد أصبح كلير فايت في عداد الموتى . وليس في وسع أي منا أن يفعل شيئا اذا ما مات الانسان ، فكل شيء قد انتهى . هيا معي ، انني مدرك لما تشعرين به .

الفصل العشرون

الفصل العشرون

استيقظت ليليان من نوم عميق . وظنت لحظة لا تدرى مما حولها شيئا ، وكان سبل اتصالها بالعالم قد انقطعت بها . ثم بدأت وخزات الحزن والشجن تحز في قلبها . واستلقت في فراشها تتلفت فيما حولها .. ورويدا رويدا ، استعادت ساعات الأمس ولحظاته الحرجة ، من منصة السباق ، الى غرفة الانتظار بالمستشفى . ومنها الى كلير فايت المسجى على فراش الموت بوجهه المشوه ، ويديه المضمومتين في وضع الصلاة ، والطبيب الواقف الى جانبها يحاول التسرية عنها .

ترى . أو كان كل هذا حلما ؟ او يمكن أن يحدث ذلك ؟

ونهضت من فراشها تحسر ستائر النافذة . واندفعت أشعة الشمس الى الغرفة . واجتمعت زرقة السماء ، مع أشجار النخيل الباسقة ، مع أحواض الزهر اليانعة ، لتجعل من موت كلير فايت أمرا أبعد ما يكون عن الحقيقة والادراك .

كان مفروضا أن يبدأ الموت بي ! انه مصيرى المحتوم الذى كنت أترقبه في غير وجل !

وسمعت رنين التليفون . فأسرعت ترفع السماعة . وكان المتحدث أحد مندوبي مكاتب تشييع جنازات الموتى يعرض خدماته : محليا وفي الخارج .

وكانت لا تعرف ماذا ينبغي لها أن تفعل . فأين يا ترى هو موطنه ؟ لقد قال لها انه من مواليد الالزاس واللورين ، ولكنها لم تعرف مسقط رأسه على وجه التحديد ؟ وعاد التليفون الى رنينه . وكان الاتصال في هذه المرة من المستشفى . ماذا هم فاعلون بالجثة ؟ انها يجب أن تسلم بعد الظهر على الاكثر . ويجب أن يعد نعش للجثة .

وألقت ليليان نظرة على ساعتها . كان الوقت ، وقت الظهيرة . فأسرعت ترتدى ثيابها . أما كان الاجدر بي أن أتشح بالسواد ؟ وكانت ليليان تشعر بأنها ما زالت تحت تأثير المخدر الذى تعاطته قبل النوم . وعلى الرغم من كل هذه الاتصالات التليفونية، فقد كانت الريبة تساورها من لحظة الى أخرى . وأسرعت تهبط الدرج لتسأل موظف الفندق النصح والمشورة . وقالت له :

— أرجو أن تقوم بعمل كل ما تراه ضروريا في مثل هذا المجال .

وقال لها الموظف ، انه يجب ابلاغ أولى الامر بالحادث . وراح يسرد على سمعها ما يستتبع هذا من اجراءات لا غنى عنها ، تتصل بالتعويض وبالتأمين ، الى الى آخر هذه الشكليات . رباه يبدو ان الموت في حينه أكثر يسرا منه بعد وقوعه . هل تحمل معها أوراق تحقيق شخصيته ؟

— أوراق تحقيق الشخصية ؟ وهل لا زال بحاجة الى مثل هذه الاوراق ؟

— بلى . لان اخطار الشرطة من الاجراءات الضرورية مهما يكن من أمر طبيعة الحادث . وبدون أمر الشرطة لا يمكن نقل الجثة . وسأتولى عنك أمر هذه الشكليات .

فشكرته ليليان . لقد كانت تريد أن تغادر المستشفى فورا . فقد كانت تشعر بانها على وشك أن يغمى عليها . وتبادر الى ذهنها انها لم تاكل شيئا منذ ظهر الامس ، ولكنها كانت لا تستطيع أن تعود الى مطعم الفندق . واسرعت تغادر الفندق الى مقهى دي باري . وجلست تتامل السيارات وهي في طريقها الى الكازينو ، وتتابع بنظراتها الناس وهم يضطربون في حياتهم العادية . وما أن فرغت من احتساء قدح القهوة الذي كان أمامها ، حتى نهضت من حيث كانت تجلس وهي لا تلوي على شيء ، وحاولت أن تقنع نفسها بانها كانت ستهجره لا محالة ، وانها كانت لن تراه لا في باريس ولا في سويسرا ، وانها كانت قد عقدت العزم على أن تعده غير موجود في حياتها . ولم تجد معها أو قل مع نفسها هذه المحاولات . ان موته شيء ، وهجرانها له شيء آخر . واتخذت لها مجلسا فوق أحد المقاعد المطلة على البحر . وكان ذهنها يضطرب بالكثير مما تريد عمله ، ولكنها كانت لا تدري بماذا تبدأ . وكان طيف كلير فايت ، وموته المفاجيء ، يشغل عليها تفكيرها .

وعادت أدراجها الى الفندق ، واتجهت الى غرفتها دون أن تتحدث الى أحد . وعند باب غرفتها توقفت وهي في حيرة من أمرها . لقد سألها موظف الفندق عن أوراق كلير فايت . وكانت في فزع من خاطر التوجه الى غرفته

للبحث عن هذه الاوراق . واستجمعت قواها وخطت نحو الباب الذي وجدت به مفتاحه ، وافترضت وجود احدى الخادمات بالغرفة لتنظيفها . وشجعها هذا على فتح الباب . ورأت امامها امراة جالسة الى الخوان في حلة رمادية اللون . وبادرتها هذه بسؤالها : « ماذا تريدين ؟

وخيل الى ليليان أنها أخطأت الغرفة . ولكنها رأت معطف كلير فايت معلقا الى مشجب . فسألتها بدورها :

— ماذا تفعلين هنا ؟

— هذا عين ما أردت أن أسألك عنه . انني شقيقة كلير فايت . ماذا تبغين من دخولك الى هذه الغرفة ؟ ومن تريدين ؟ !

والتزمت ليليان جانب الصمت . لقد سبق لكلير فايت أن حدثها عن أخت له ليست على علاقة حسنة معه . وأنه لا يعرف عنها شيئا منذ عدة أعوام . ورجحت ليليان أن هذه هي الشقيقة المعنية . وقالت ليليان اخيرا :

— لم أتوقع وجودك هنا . وما دام الامر كذلك ، فليس ثمة ما يستوجب وجودي .

— هذا هو عين الصواب . لقد قيل لي أن شقيقي كانت له علاقة ما باحدى النساء . ترى هل تكونين المعنية بذلك ؟

— ليس هذا من شأنك .

وعادت ليليان أدراجها الى غرفتها . وبدأت تعد حقائبها ، الا انها سرعان ما توقفت عن ذلك . لن أستطيع أن أرحل قبل أن يوارى التراب .

وتوجهت الى المستشفى ، حيث قالت لها ممرضة الاستقبال انها لا يمكن أن يسمح لها باللقاء نظرة أخرى

على كلير فايت . وانه قد صار تشريح الجثة بناء على طلب أحد أفراد أسرته . وأن الجثة ستودع نعشا من الزنك ، ثم تنقل الى مسقط رأسه .

وأمام المستشفى ، التقت ليليان بمدير السباق ، الذي قال لها : « اننا راحلون هذا المساء » . هل التقيت بشقيقته ؟ انها تتخذ موقفا عدائيا من الجميع . وقد تقدمت بشكوى الى الشرطة ، وطرقت جميع الأبواب . وهي تطالب بمعاش مدى الحياة ، مدعية بأن كلير فايت كان عائلها الوحيد . اننا راحلون . ويحسن بك أن ترحلي ، أسوة بنا : لقد انتهى كل شيء .

ـ أجل ، لقد انتهى كل شيء .

ومشت على غير هدى في الطرقات . وكانت تنتقل من مقهى الى آخر ، الى أن أقبل المساء وقفلت راجعة الى الفندق . وشعرت بأنها جد مرهقة متعبة . وما أن أوت الى فراشها حتى استغرقت في نوم عميق . وصحت من نومها على صوت رنين التليفون . وكانت شقيقة كلير فايت ترغب في لقاء عاجل بها للتحدث في أمر هام ، ودعتها لزيارتها بغرفتها . غير أن ليليان قالت لها :

ـ اذا كان لديك ما تريدين التحدث به الي . فلتصارحيني به الآن .

ـ انه حديث لا يمكن أن يتم عن طريق التليفون .

ـ فليكن لقاؤنا ، ما دام الأمر كذلك ، في بهو الفندق .

ـ انه أمر عاجل لا يحتمل التسويف .

ـ سنلتقي ظهرا .

ثم أعادت السماعة الى مكانها . وألقت نظرة على ساعتها ، فوجدتها التاسعة صباحا . لقد قضت في نومها خمس عشرة ساعة ، ولكنها لم تزل متعبة .

ونهضت الى غرفة الاستحمام ، لتستعين بالماء على ازالة آثار الخمول عنها . ومن هناك سمعت طرقا على باب غرفتها . فأسرعت تضع ثيابها . وقبل أن تتمكن من فتح الباب ، رأت شقيقة كلير فايت تقتحم عليها غرفتها قائلة :

ـ هل تدعين الآنسة تنكرك ؟

ـ يمكن تأجيل أي حديث بيننا الى الساعة الثانية عشرة في بهو الفندق كما سبق أن قلت لك . ليس الآن ولا هنا مجال هذا الحديث .

ـ ولكنني حضرت اليك بنفسي ، وأريد ..

ـ لقد اقتحمت على غرفتي . لا تحمليني على الاتصال بادارة الفندق ، لاتخاذ ما ينبغي حيالك .

ـ لن أستطيع الانتظار حتى الثانية عشرة ظهرا . ان ساعة قيام قطاري ستكون قبل ذلك . هل تريدين لمخلفات أخي أن تظل ملقاة على الافريز ، الى أن يطيب لسيادتك الحديث معي ؟ ان معي نسخة من مستند شرعي عثرت عليها بين مستندات شقيقي . وليس من شك في أن لديك الاصل . انها بشأن التنازل لك عن بيت بالريفييرا .

ـ لي أنا ؟

ـ ألا تعرفين شيئا عن ذلك ؟

ـ أطلعيني على هذا المستند .

ـ ألم يسبق لك الاطلاع عليها ؟

ولم تجب ليليان بشيء . وبعد أن أطرقت قليلا قالت لها :

ـ وهل هذا ما كنت تريدين التحدث به الي ؟

ـ أردت أن أبصرك بأن الاسرة ستطعن في هذا التنازل ، ولن تعترف به .

ـ قد يكون من الخير لك ، أن تقرري رفضك هذا التنازل ، تجنبا لما قد يستتبعه الطعن من استجواب محرج .

ـ وهل أعددت هذا الاقرار ؟

ـ انه معي .. ليس عليك الا أن توقعي عليه بامضائك . يسرني أنك تحسنين تقدير الامور .

ومدت ليليان يدها تتناول المستند منها ، ثم مزقته اربا قائلة : « فلتخرجي فورا . لقد ضقت بك ذرعا . »

وتمالكت المرأة نفسها قائلة : « لقد قلت أنك لا تعرفين شيئا عن هذا التنازل » .

واتجهت ليليان الى الباب تفتحه وهي تقول :

ـ هذا ما عليك أن تكتشفي أمره .

ـ وهذا ما ساقوم به فعلا . ان الحق في جانبنا . ثمة فارق كبير بين الاقرباء وبين .

واسرعت ليليان تلتقط بعض الزهور التي سبق أن اهداها لها كلير فايت منذ يومين والقت بها في وجه المرأة ـ لانها لم تجد أفضل من هذه الطريقة لاسكاتها .

وصرخت المرأة في وجهها قائلة :

ـ ستدفعين ثمن هذا .

ـ أغربي عن وجهي .

وانصرفت شقيقة كلير فايت . ووقفت ليليان واجمة مطرقة . وفاضت الدموع من عينيها ؛ فنفست عنها كربتها .

استوقفها موظف الفندق في البهو قائلا : « لقد استجدت بعض المشكلات . »

ـ وماذا عساها أن تكون ؟

ـ لقد قضت أوامر شقيقة المتوفى بصنع نعش تنقل به

الجثة الى بلدته ، وذلك بعد أن نفذنا أوامرك بصناعة نعش محلي .

ـ الا يمكن اعادته للمصنع ؟

ـ حاولت ذلك ، ولكنهم رفضوا . ويمكن اعادته بنصف الثمن .

ـ فليكن .. أرجو أن تعد لي قائمة الحساب لانني راحلة هذا المساء .

ـ حسنا يا سيدتي .

● ● ●

عادت ليليان الى غرفتها . ودق جرس التليفون . ولكنها لم تجب . واستكملت اعداد حقائبها . وفي حقيبة يدها ، عثرت على تذكرة السفر الى زيوريخ ، المحدد لها مساء اليوم بالذات .

ودق جرس التليفون ثانية . وتجاهلته الى أن توقف رنينه . وشعرت بانقباض شديد وبعاصفة من الرعب تجتاح حنايا نفسها . ترى هل تكون وفاة كلير فايت هي خاتمة المطاف ؟ أم ثمة نوازل أخرى يدخرها القدر في جعبته ؟ ترى ماذا ألم ببوريس هو الاخر ؟ ومدت يدها الى التليفون تحاول الاتصال به غير انها عدلت عن ذلك في اخر لحظة انه سيعتقد انها لم تتصل به الا بعد وفاة كلير فايت . وهو لن يصدق مهما قالت ، انها كانت قد عقدت العزم على أن تهجر كلير فايت .

وجلست في سكون تستمع الى حفيف زعف النخيل ، الى أن مالت الشمس في أفق المغيب . ثم نهضت تعتزم الرحيل ولكنها ترددت ثانية . انها لن تستطيع السفر قبل أن تستوثق من أن بوريس ما زال على قيد الحياة .

وليس من الضرورى أن تتصل به رأسا · ان فى وسعها أن تتصل بمكان اقامته ولا تفصح عن حقيقة اسمها ، فاذا ما علمت بوجوده قطعت الاتصال التليفونى .

وتم الاتصال بالمسكن الذى كان يقيم به بوريس · ووجدت أنها تفصح عن حقيقة اسمها · واتضح لها بعد أخذ ورد أن بوريس غادر المسكن الى حيث لا يعلم أحد بعنوانه الجديد · واستبد الشك بها ، وتواردت فى خاطرها شتى الظنون . وجلست فى سكون مخيم ، نهباً لتيار شديد من الحيرة والقلق · وأخيرا نهضت متجهة الى حيث قامت بسداد قائمة الحساب ، وأمرت بنقل حقائبها الى محطة السكك الحديدية .

الفصل الحادى والعشرون

جلست فوق احد المقاعد امام المحطة · وجلس امريكى الى جانبها يثرثر ويتحدث عما صادفه من مشاق فى أوروبا ويقارن بين طعام بلاده وطعام غيرها من البلاد الأخرى . وكانت ليليان ساهمة الطرف ، شاردة الفكر ، فريسة للشعور العميق بالحزن ، والضياع ، والأسى · ووقع نظرها على الكلب الذى يعدو متجها اليها دون أن تتعرف عليه · وفزع الامريكى ، وأسرع ينهض مبتعداً · وتوقف الكلب أمام ليليان قبل أن يندفع نحوها ثانية ، ليستقر بساقيه الاماميتين فوق كتفيها ، محاولا أن يلعق وجهها بلسانه ، بينما كان ينبح ويصرخ ، الى أن تجمع الناس من حولهما · ووجدت نفسها أخيرا تصيح : « وولف ، ماذا تفعل هنا ؟ » .

وفجأة تخلى الكلب عنها ، ثم اندفع يعدو فى اتجاه رجل كان يجتاز الميدان ، ويعود اليها لاهث الانفاس · ونهضت تتطلع الى حيث وجدت فولوكوف قادما ، فصاحت دهشة : « بوريس ! » .

ــ هكذا وفقت فى العثور عليك أخيرا . لقد علمت من

موظف الفندق بانك غادرته الى المحطة . واعتقد انني وصلت في الوقت المناسب .

ـ لقد اتصلت بك تليفونيا ، وقيل لي انك رحلت . ولقد خيل الي ..

ـ لقد قرأت عن الحادث في الصحف . وهذا هو سبب مجيئي . ولم أكن أعرف شيئا عن محل اقامتك على وجه التحديد ، والا لكنت قد اتصلت بك تليفونيا .

ووقفت تتأمله لحظة . ثم سمعته يستطرد قائلا :

ـ حمدا لله انك بخير . فكل ما عدا ذلك عديم الاهمية .

وفهمت ما يعنيه بقوله هذا . ما عدا ذلك مما أساءت به اليه ـ ما عدا ذلك من انانية ومن جرح لكبريائه ، لم يعد له مكان بينهما . لقد نسي كل شيء لمجرد لقائه بمن احبها واحلها من قلبه في أعز شغافه .

وعقبت قائلة : ـ أجل . كل شيء ، عدا ذلك ، لا اهمية له .

ـ متى تحل ساعة سفرك ؟

ـ بعد قليل . لم يعد لهذا اية اهمية .

ـ الى اين كنت تزمعين الرحيل ؟

ـ الى زيورخ .

ـ هل تحبين الاقامة في انتيب . في فندق دي كاب ؟ هل اسألهم حمل حقائبك اليه ؟

ـ كلا . دع الحقائب في مكانها . فلا رغبة لي في الاقامة في هذه الانحاء . كما يجب ان نعود من حيث قدمت .

ـ لا يوجد ما يستدعي عودتي .

ـ هل تم شفاؤك ؟

ـ كلا . ولكنني اريد ان اكون معك حيث تكونين .

ـ ولكن ..

ـ لقد أدركت ما دفعك الى الرحيل .

ـ اذن ، فلماذا لم ترحل معي ؟

ـ وهل كنت ستوافقين ؟

ـ كلا . في الحقيقة ، لا . لم اكن لاوافق .

ـ لأنك كنت تريدين أن تخلفي وراءك كل ما يتصل بمرضك . كنت تريدين الهرب منه .

ـ ربما كان الأمر كذلك . يخيل الي انه ماض بعيد انه الماضي الذي ولى ومضى بكل ظروفه وبكل ملابساته .

ـ هل تريدين حقا الرحيل الليلة ؟

ـ أجل .

ـ ساحاول ان ابتاع تذكرة سفر لي .

وعاد فولوكوف بتذكرة السفر ، قائلا :

ـ حينما تصل الى زيورخ ، سنتدبر أمرنا .

ـ انني اريد العودة .

ـ العودة ؟ العودة الى اين ؟

ـ كنت في طريق العودة ـ كنت أزمع هذا منذ فترة . صدقت أم لم تصدق .

ـ وماذا يدعوني لعدم تصديقك ؟

ـ وماذا يدعوك لتصديقي ؟

ـ لانه سبق لي ان سلكت هذا المسلك . الانطلاق ثم العودة .

ـ ولم تستمع الى نصح ؟

ـ بلى ، اذ لا جدوى من ذلك . ومهما يكن من أمر ما يقدم الينا من نصح ، فلن نفعل غير ما عقدنا العزم عليه ، ثم نعدل عن مواصلة طريقنا بعد أن نتبين ما ترددنا فيه من

خطأ . هذا هو الانسان فان لم نفعل ذلك . خيل الينا أنه قد فاتنا الكثير . هل يمكن أن أعرف الى أين تزمعين الذهاب بعد زيورخ ؟

– الى اية مصحة . انهم لن يوافقوا على عودتي الى مصحة بيلافيستا .

– انهم سيوافقون على عودتك بدون أدنى شك . ولكنك متعبة وبحاجة الى الراحة مؤقتا الى ان تستردى بعض عافيتك .

– أريد العودة فورا . وهذه العودة كنت قد قطعت برأى فيها ابان حياة كثير غابت دون علم منه .

– ولماذا ؟

– لاكثر من سبب . ولم أعد أعي منها شيئا الآن .

– اذا ما قررت التخلف هنا ، فانى مقيم معك .

– كلا . حسبي ما كان . انني أريد العودة . ولئن كنت تريد الاقامة هنا ، فليس عليك من حرج ، فلتاخذ أنت الاخر نصيبك من الدنيا .

– لقد كان لي نصيب كبير منها .

– هذا ما سمعت به فعلا .

ومن زيورخ ، اتصل فولكوف تليفونيا بالمصحة . وبادره مدير المصحة قائلا : « وما زلت بعد على قيد الحياة ؟ فتيكن ، نحن في انتظارها » .

ومكثت ليليان أسبوعا بفندق دولدر في زيورخ . وكانت ملازمة فراشها لما كانت تشعر به من ارهاق وفجأة ارتفعت حرارتها دون أن تنخفض لعدة أيام متوالية . واستدعى فولكوف احد الاطباء لزيارتها . وصارحه الطبيب :

« كان من المتعين أن تودع احد المستشفيات من قبل .

ومهما يكن من أمر فلتبق حيث هي الآن . »

– انها تريد العودة الى مصحتها بين الجبال .

– كما تشاء . على ان تحمل على محفة .

ووافقه فولكوف ، وان كان يبطن خلاف ما يظهر . ان معاملة المرضى معاملة من تشرف حياتهم على النهاية ، قد يعجل بنهايتهم ، ويسىء اليهم باكثر مما تسىء به اليهم المعاملة العادية .

وبادرته قائلة بعد عودته من تشييع الطبيب :

– يالبوريس المسكين ! ماذا قال الطبيب لك ؟ هل صارحك بأنني لن تمتد بي الحياة الى نهاية الرحلة ؟

– لا شيء من هذا القبيل .

– ولكنني سأقاوم على الرغم مما قاله لك . الى بكأس من الفودكا . ان علينا ان نتخذ من كل لحظة نحياها سلاحا نقاوم به الخوف مما هو آت .

● ● ●

واستقلا السيارة الى الجبال ، في يوم دافىء ، معتدل الطقس . وفي احد المتحنيات القت سيارتهما بأخرى تفسح لهما الطريق . وصاحت ليليان : « هولمان انه هولمان ! »

– ليليان ، وبوريس ! ولكن .. لحظة ريثما انتحى بالسيارة جانبا .

وعاد ادراجه اليهما سيرا على قدميه ، وبادرته ليليان بسؤالها : « ماذا جرى ؟ الى أين تراك ذاهبا ؟ ! »

– لقد قلت لك انني شفيت ؟ الا تذكرين ؟

– وهذه السيارة ؟

– استعرتها . لانه لا يجمل بي أن أسافر بالقطار ، وقد

– الى العمل ؟ مع من ؟

– مع مديري القديم . لقد اتصلوا بي تليفونيا . انهم بحاجة ماسة الى خدماتي . وساعاود نشاطي بالاشتراك مع توريانى . تمنياتك . كم انا مسرور بلقائك ، انها لصادفة سعيدة !

ولوحت ليليان له بيدها ، وهو في طريقه ليحتل مركز كلير فايت ، كما احتل كلير فايت مركز زميل له من قبل ، وكما سيحتل آخر مركز هولــلن من بعد .

●●●

بعد أسابيع ستة ، لفظت ليليان أنفاسها الاخيرة ، في يوم صيف ، هدأ جوه وسكن . وكانت وفاتها سريعة ، خاطفة ، مفاجئة . ولم يكن الى جانب فراشها أحد ، وكان بوريس قد ذهب الى القرية في شأن له . وعاد ليجدها مسجاة في فراشها وقد فارقت الحياة . وكان وجهها متقبضا ، محتقنا ، مما ينبىء أنها لفظت انفاسها نتيجة لنزيف حاد . وكانت يداها قريبة من حنجرتها . وبعـد قليل ، استرخت ، واصبح وجهها اجمل مـا سبق لبوريس أن رآه عليه من جمال من قبل . وقد حمله هذا على الاعتقاد بانها غادرت الدنيا سعيدة ، سعادة البشر الهانئين .

انها قبل أن تموت .. ارادت ان تعيش ، وعرفت كيف تعيش .. !

تمت

رقم الإيداع بدار الكتب
١٥٢١ / ١٩٦٩

مطابع الأهرام التجارية

السماء لا تحابي أحداً

قصة أحلام اليقظة .. تتحرك الشخصيات فيها لأداء أدوارهم على مسرح الحياة اللاهية .. فتدفع بهم الأحداث الى المصير الذى لا مفر منه ولا مهرب حيث تتبدد الأحلام لاصطدامها بالواقع الذى نحيـاه ، حين ذلك يتأكد أن السماء لا تحابى أحدا .